الفصل الأول

التناسب في بناء السورة

الفصل الأول

التناسب بين الفواتيح والخواتيم

حظي الأول والآخر باهتمام الدرس البياني بلاغة ونقدًا، فهما من الأبواب التي تمحص بلاغة المتكلم، وتكشف عن مدى اقتداره؛ لأن تصريف معاني الآخر على معاني الأول يتطلب اعتبارات مختلفة، تتصل بالدلالة في أغمض مستوياتها، «لأن الطرفين حاصران للوسط، ويدلان عليه لأجل ارتباط التناسب»[1] . أي أن الأول والآخر يشكلان الهيئة المكتملة للنص بجميع مقاصده، فالبدء يكتنف الأغراض والمعاني التي يؤسس لها المتكلم ثم تنسل من لغته وتتنامى داخل الوسط، والآخر تستقر عنده الدلالة على الأغراض المتنوعة في الداخل فيلاقي أطرافها ويجمع مختلفها .

وهذا يتطلب فطنة في ترديد المعاني دون تكرارها كي لا تملها النفس، ويستثقلها الفهم، بل يداخل ويمازج بينها بالتلاحظ والتآلف دون التواطؤ . وجعله بعضهم مقياس الشاعرية: «قال العلماء: ينبغي للمتكلم أن تزيد عنايته ويكثر اهتمامه بأربعة مواضع من كلامه – وإن كان ينبغي أن يتحرى الأجود في سائره – أول الكلام ، وآخره، ومكان التخلص من فنٍ إلى فنٍ، وموضع الطلب، فقالوا: براعة المطلع، وحسن التخلص، وحسن الطلب، وحسن الختام»[2].

وروى المرصفي حكاية لطيفة تدل على دقة هذا المقياس في الحكم على بلاغة الكلام والحكم على قريحة صاحب البيان، حكي أن شاعرًا مغربيًّا كان قد سمع شعرًا للصاحب بهاء الدين زهير المصري، فقصد مصر؛ ليتعلم رقة الشعر فلما لقيه وعرّفه مراده ألقى عليه البهاء صدرًا؛ ليعمل له عجزًا فأنشده:

يا بان وادي الأجرع

---

(١) "الروض المربع " ابن البناء ص ٦٩ .

(٢) "الوسيلة الأدبية " المرصفي ٢/ ٩٢ .

فأخذه المغربي وانصرف يكد فكره في تتميمه ثم جاء صبيحة ليلته إلى الصاحب فأنشده:

يـــا بـــان وادي الأجـــرع سقـــيت غـــيث الأدمـــع

فقال البهاء: الصدر يطلب غير هذا، وأتمه بقوله:

هل ملتَ من طرب معي[1]

وذكر المرصفي وجه بلاغة العجز فقال: «فأنت ترى أن الميل مأخوذ من البان، وتعليل المساعدة للعاشق ومجانسته إياه في العشق، فمثل هذا ينبغي أن تكون المطالع»[2].

فالأول لم يصنع شيئًا ومطل الكلام إلى معنى لم يُبن عليه الصدر فأفسد البناء بقطع النداء بعد أن هيأ لمعنى يتعلق به، وأسس عليه ما ليس من جنسه وهو الدعاء .

وأما الآخر فبنى على النداء الطلب فأشبع تحفز النفس لاستقبال المعنى المتوقع، ثم شبك الآخر بالأول بوصف الميلان الذي هو من أخص صفات البان، وزاد في الدلالة بأن جانس مجانسة خفية بين حالة الشاعر واهتزازه بعشقه وحالة البان وتمايله، فكأن هواه انتقل إلى جميع أعضاء الوجود فحركها طربًا وأشاع فيها أنسًا؛ لتعين العاشق في وجده وحنينه.

ثم نمى أجواء الطرب التي أبرقت بها لفظة «البان» فتشابه الطرفان، بينما أحدث اختيار لفظ الأدمع عند الآخر حزنًا وعويلًا بعد أن تمايلت النفس أنسًا وطربًا مع البان .

وقد تعددت أوجه العناية بهذا الباب فاتخذت صورًا مختلفة تتبع انعكاسات الأول في الآخر جرسًا وآخر لفظًا وثالث معنى . فتكاثرت مباحثه وتنوعت، ولكن يظل يجمعها أصل واحد وهو أن الكلام «يلتبس أوله بآخره، ويأخذ آخره من أوله»[3]، وتنوع مباحثه كان على اعتبار من تنوع صور الالتباس والأخذ .

---

(١) "الوسيلة الأدبية" المرصفي ٢/ ٩٤ بتصرف .

(٢) السابق نفسه .

(٣) "اختيار المنظوم والمنثور" ابن طيفور ص ٨٣ .

فظهرت الكثير من المصطلحات التي تعنى بملاحظة أوجه الالتقاء بين البدء والآخر كالتسهيم أو التوشيح، والتصدير أو رد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، وأخرى تبحث في علاقة الآخر بالمقاصد كالتذييل وحسن المقطع والخاتمة، وثالثة تلاحظ المطلع وانسجامه مع الأغراض كبراعة الاستهلال أو المبادئ والمطالع .

وقد عني البلاغيون بجميع ما من شأنه أن يحدث في الكلام تشابكًا؛ لأن الكلام الجيد مبني على هذا فيأخذ بعضه برقاب بعض ويدل أوله على آخره .[1]

وأقدم صور ملاحظة الأواصر والنسب الحميمة بينهما كانت باعتبار المعنى والبناء عليه، فهذا الشافعي [ت٢٠٤هـ] يجعل ضبط الدلالة لا يكتمل إلا عند الآخر؛ لما يحدثه أحد طرفي الكلام من تغير في الطرف الآخر بالتفصيل أو التخصيص أو التعميم، فلا يتبين المعنى إلا برده على ما أنهي إليه الخطاب فالكلام «ينبئ أوله عن آخره، وآخره عن أوله»[2] ففهم أحد الطرفين لا يغني عن الآخر، وهنا التفاتة رائعة من الشافعي حينما جعل وظيفة الختام وظيفة إعلامية فقال «ينبئ» فأخرجت دلالة الآخر عن التكرير لدلالة الأول، وإنما لها بيان تأسيسي لمعان لا تؤديها جملة صدر الكلام، فإخراس صوت الإبانة في الآخر والنظر إليه باعتبار التباسه بالأول وأخذه منه دون إنطاق الجانب البياني له من خلال تأسيسه لمعانٍ أخر لم تحملها دلالة الأول يحول دون اكتمال المقاصد، ويعفي على كثير من محاسن البيان .

وفقه الدلالات المتشابهة عند البلاغيين لا يعني التطابق التام بحيث يصبح الآخر هو الأول بصريحة ومكنية، وإنما التفتوا إلى المزايا والخصائص والصفات التي تندس في لغة الآخر فتشده إلى الأول، وتعلقه بإعطافه، ثم تجري فيه عناصر تطرح بدلالته إلى آفاق جديدة تزيد في محتواه ويستقل بها . فالخاتمة تروز مقاصد البدء فتفصل ما أجمل هناك وتفسره وتخصص ما عمم وتعمم ما خصص، وتقابل صور البدء بنظائره الضدية؛ لتكتمل المعاني وتتم المقاصد .

---

(١) "سر الفصاحة" ابن سنان ص ٥١ .

(٢) "الرسالة" الشافعي ص ٥٢ .

ثم تتجاوز هذا التشابك فتفيض بدلالات تمنحها من الوسط، فتستقي منه وتسقيه . وتؤسس لمعانٍ يستقر عندها الكلام؛ لأن الكلام عند منقطعه يكون قد بلغ الغاية في الإفهام، فالناس في الفهم صنفان: صنف يكتفي باللمح الدال، وصنف لا يشفي فهمه إلا التفصيل والتحليل .

وقد هداني لهذا القول ما رواه الجاحظ عن رجل من طيِّئ يمدح كلام رجل فيقول: «هذا كلام يكتفى بأولاه، ويشتفى بأخراه»[1].

فقف بقوله: «يكتفى بأولاه» وما يحمله من تصوير لوظيفة البدء، وأنه ذو دلالة مجملة تكتنف دلالات الكلام جملة، حتى يداخلك أن كل معنى يتضمنه الكلام له أصداء في جملة البدء، وأنَّ ما وراءه تفصيل وحلّ لما نفث في كلماتها وأجراسها، وعقدت عليه لغتها، ثم قف بقوله: «ويشتفى بأخراه»وتأمل موقع الشفاء في الخاتمة وكيف تمرض لغتها ومعانيها الإجمال في البدء، فكأن الخواتيم هي طب الفواتيح، فعندها تتجلى المقاصد وتستقر بعد أن توزعتها التراكيب وحركتها باتجاهات متنوعة بحسب الأغراض والأحوال فتأتي الخاتمة لتجمع أعناق المعاني في بيان ملتفٍّ يسكن فيه المعنى ويتجلى عيانًا بعد أن كان يروغ في دلالات متزاحمة تجتمع أصداؤها فلا يكاد ينماز رنينه، فحضور الخاتمة يدل عليه ويعلي صوته، وبهذا تشفى نفس المخاطب من التردي في أودية المعنى المترامية، فترود به بواطن الدلالات، ويقف منها على مكان يشرف به على جميع المقاصد المتنوعة من خلال هذه الزاوية المحدودة .

ولا يهولنك هذا الحدْس، فيقع في وهمك أني أتكلف قراءة النص وأنطق رجل طيِّئ بما لم ينطق، وتطالب بالدليل المنقول، فعلم ذلك وكل إلى صفاء القرائح وحفاوتها بعبارة العلماء فتنظر فيها كما في عروق الذهب، وواقع النقد العربي القديم يقرر هذا النمط من القراءة، ويجعل الوصول إلى أصوله بمعاناة لغة البيان ومعالجة أسرارها وأحوالها فمن رامه من غير مزاولة ومحاولة رام عسيرًا .

---

(١) "البيان والتبيين" ١/ ١٤٩ .

ولذلك قال الجاحظ: «طلبت علم الشعر عند الأصمعي، فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ... فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب»[1].

وبهذا يتضح الطريق إلى أصول النقد وأن لغة الأدباء في تذوق البيان، هي التي تؤصل مناهجه، وترسم حدوده، وتخط معالمه، فالنقد نشأ في حنايا البيان وخالط لغته، ولن يفضي إليك بمكنونه حتى تشق طريق اللغة وتنظر في بلاغتها وتجلى دلالتها فتفيض لك بما في صدرها من أسرار وأصول أودعها أهل اللسان في كلماتها .

فالأدباء حينما أودعوا أصول فهم بيانهم ومقاصدهم في لغتهم، يرومون من ذلك أن من لم يكن قادرًا على تذوق الكلام واستشفاف غوره هو بمعزل عن النقد؛ لأن أعظم أصول النقد مزاولة كلام العرب والمدارسة له، فمن كان عاجزًا عن ذلك فلن يؤصل أصوله، ولن يرسم مناهجه . وهذه من فطنة النقد العربي حتى يخرج الأدعياء فلا يصح فيه ولا يثبت إلا من أشرب في قلبه البيان .

وإن كان النقد العربي يحمل كثيرًا من التصريحات التي توجه إلى أماكن الحسن في أواخر الكلام وأوائله، كما في حديث ابن طباطبا عن موقع القافية، وتمكنها في مكانها باعتبار الدلالة، فالشاعر متى «اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار»[2].

وذكر صورًا كثيرة لذلك منها قول أبي عيينة المهلبي:

---

(١) " العمدة " ابن رشيق ٢/ ٨٤ .

(٢) " عيار الشعر " ابن طباطبا ص٨ .

دنـــيا دعوتـــك مسمعًـــا فأجيبي وبـــمـــا اصطفيتـــك للهوى فأثيبي
دومـــي أدُمْ لـك بالوفاء على الصفـا إنـــي بعـــهدك واثـــق فثقي بـــي

وعلق عليه قائلًا: «فقوله: «فثقي بي» لطيفة جدًّا، فيستدل بها على حذق قائلها بنسج الشعر»[1].

فالقافية «فثقي بي» هي قرار المعنى، حيث هيأت الطلب في صدر الأبيات: فأجيبي، «فأثيبي»، و«دومي»، إلى التحقق والوقوع؛ لأنه متى حصلت ثقة الدنيا بالشاعر سُمع صوته، وأثابته لاصطفائها باصطفائه وألبسته حلل الوفاء والصفاء على وفائه .

فالقافية وإن مكنت دلالة الجملة التي وقعت فيها فهي لا تنقطع عما قبلها وإنما تجد لها مدخلًا في دلالة المطلع فقد سدت لحمة الأبيات، وأحكمت نسجها، فاستقرت عندها الدلالة.

ومثله قول عروة بن أذينة:

وكـــل هـــوى وإن عنَّـــى زمانـًا لـــه مـــن بـــعدَ مـــيْعَـــته تجلِّي
كـــأني لـــم أكن مـــن بعـــد ألـــف عذلـــت النـفس قبل على هـوى لي
فـإن أقصـــر فقد أجريت عصـــرًا وبـلاّنـــي الهـــوى فيمـــن يبـــلِّي

فقوله: «هوى لي» لطيفة الموقع[2]، وقد أحسن ابن طباطبا غاية الإحسان إذ أورد ما قبلها وما بعدها من الأبيات لأن فقه دلالة حسن الموقع لا تكون إلا بذلك الحضور الدلالي للسابق واللاحق، فكيف أجهض كثير من نقاد اليوم أقوال علماء البلاغة في الوحدة؛ لأنهم

(١) "عيار الشعر" ص ١٨٣ .

(٢) "عيار الشعر" ابن طباطبا ص ١٨١ .

وقفوا باستدلالهم عند الأبيات المفردة، فقطعوا الجمل عن متعلقاتها، وهذا ابن طباطبا يدرس القافية ثم لا يعلق دراسته بالبيت المفرد، وإنما ينص على أنها داخلة في نسيج الشعر وليس الجملة أو جملة الأبيات وإنما القصيدة كلها، فتمكنها يناط بملاحظة عدة جمل تتوزع دلالتها . وأكثر شواهد هذا الفصل جملة أبيات يجعل فيه لطف الموقع لأحد قوافيه، وكأنها هي الناظمة للمعنى .

فلطف موقع «هوى لي» جاء من كونها نظمت ما قبلها فيها، وجسرت للمعنى الذي بعدها، فالبيت الأول معنى عام قرر حقيقة شائعة بأن كل صاحب هوى وإن متع زمنًا بعشقه، وتنعم برشف لذيذ كأسه، أو تنغص بغصص عنائه، فإن تطاول فله من بعد أُنسه وصفوه انجلاء، حتى إذا أنست النفس بهذه الحقيقة بنى عليها تجربته وهو أنه تجاسر على أهوال العشق، وروض نفسه فارتاضت وأقصر باطلها فأقصرت، ثم جسر هذا المعنى لما بعده وهو أن عزوفه عن الغي ما كان يكون لولا أعصر بلت وأبلت معها الشاعر، ثم حارت الدلالة إلى العموم في مطلع الأبيات واستحضره فقال: «فيمن يبلي»؛ ليؤكد أن هذا ديدن كل هوى.

وقد شاع مصطلح الفواتيح والخواتيم في الدراسات القرآنية[1]، وعند أكثر المفسرين، وجرى الرازي في «تفسيره» على هذه التسمية، وأحيانًا يذكر الأول والآخر، ويندر عنده استخدام مصطلح المطالع والمقاطع بينما يكثر البقاعي من استخدامه في الحديث عن علاقة آخر السورة بأولها، ولعل سبب ذلك منهجه الذي بنى عليه دراسته للتناسب تفسير القرآن كله تفسير السورة الواحدة، وجعل السورة بمنزلة الجملة من الجملة، فمقطع السورة يلتقي بمطلعها ثم ينشق منه ما يهيئ لما بعده، وهذه ركيزة جرى عليها البقاعي في جميع «تفسيره».

أما الرازي فكان في بداية تحوير المصطلح وغرسه في سياق أبعد وأغزر، فانتقاله كان محسوبًا بخطوات تتقارب مع أصول منبته ومغرسه، ولكن مع هذه المقاربة استطاع أن يخصب التفاتة عبد القاهر في تحليله لقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ

(١)" البرهان " الزركشي ١/ ٣٣ ، " معترك الأقران " السيوطي ١/ ٥٨ ، " إعجاز القرآن " الباقلاني ص ٢٠٨ .

﴿ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]. وذكر أن من أوجه إعجازها: «مقابلة «قيل»في الخاتمة بـ «قيل»في الفاتحة»[1] فهدته هذه الطريقة من التحليل في مقابلته لمعاني الآخر وعطفها على أوائل الكلام وبواديه لاستثارة المعاني، والكشف عن وجوه الملائمة بينهما، هدته إلى دراسة حركة المعنى ما بين الفواتيح والمقاصد أو الوسط والخواتيم ثم المزاوجة بينها فترد المقاصد على الفواتيح والخواتيم ثم الخواتيم على الفواتيح فيحدث توزيع الدراسة بين هذه العناصر الثلاثة إحكام لبنية السورة، وتجلية لمقاصدها المستكنة في أعطاف لغتها وسياقاتها المتباعدة، فيتبع المعنى الخفي صداه في مواقع متنوعة، ويعلو صوته فينطق مفهومه منطوقه، وتجتمع أصداؤه المتفرقة في منظومة متنامية تتصاعد فيها المعاني وتتشكل من خلال ارتداد أطراف السياقات بعضها على بعض، وبهذا تتكون الوحدة التي يترابط نسيج أعضائها بوشائج دقيقة يتصل فيها المعنى بالمعنى ليس بالتتابع والتدرج المنطقي وإنما بالتثني وردِّ السياق إلى السياق وعطفه عليه فتكتمل عندها الدلالة.

ومن أبرز ما تميز به الرازي عن غيره من المفسرين الأوائل والمتأخرين عنه، وصفه لبنية السورة بالوقوف عند وحداتها أو العناصر المكونة لها ثم ما بين هذه العناصر من تشارب وتمازج وتلاحظ وإن تباعدت في أماكنها وترتيبها داخل نظم السورة لها . فلم تعد العناية بهذه الوحدات الثلاث عند السابقين سوى إشارات وتلميحات تحث ذوي الأبصار على أن تروزها وتجس خباياها، ويكاد الباقلاني ينفرد بين علماء البلاغة بالتصريح بتقسيم السورة إلى وحدات ونبه على مكانة العلم بها من الإعجاز وقد ذكر ذلك في صدد حديثه عن تميز النظم القرآني، يقول: «وإذا عرف ما يجري إليه الكلام، وينهى إليه الخطاب، ويقف بعد عليه الأسلوب ويختص به القبيل، بانَ عند أهل الصنعة تميز بابه، وانفراد سبيله، ولم يشك البليغ في انتمائه إلى الجهة التي ينتمي إليها، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه»[2].

---

(١) " دلالة الإعجاز " ص ٤٦ .

(٢) إعجاز القرآن " ص ٢٠٩ .

فهذا النص يضم الوحدات الثلاث وهي: الفواتح «ما يجري إليه الكلام» والخواتيم وهي «ما ينهي إليه الخطاب»، والوسط وهو المقاصد التي «يقف عليها الأسلوب». وصرح بهذه التسمية في قوله: «وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة»[1].

وهذا النص بارع يغري بفتح باب دراسة ذلك الفن وتتبع نبعه في القرآن الكريم، والكشف عن منابع إعجازه،و كيف يتفاضل بيان عن بيان بمراعاته والأخذ بأسبابه . وأن الوصول إلى تمييز طرائق الكلام واختلاف مسالكه ومناهجه التي ينتهجها المتكلم في الإبانة عن مقاصده وأغراضه، لا يكون إلا بدرك هذا الباب، وإتقان معرفته وسبر غوره . وبه يحكم بناء الكلام، ويضبط مجاري الخطاب وتحولاته وتنقلاته، حتى كأن المتصدي له يعد عن المتكلم «مجاري حركاته وأنفاسه»[2]. فيتتبع أصداء المعاني بعضها في بعض فيلحظ ائتلاف تجاورها وإن اختلفت في ظواهرها، فهناك أنفاس تسري من قاعدة الكلام ومقاصده الكلية، فتحفظ للغة عبقًا واحدًا يمازج بين مختلفاتها . ونقل هذا الشعر يثري درسه، ويؤصل لوحدة بنائه، فالكلام وإن تشعبت به الأغراض وتوزعته فرجوعه إلى قاعدة ومقصد كلي بحكم تماسكه، ويعيد بناءه برد كل معنى إلى نظائره، فتجتمع الأجزاء وتأتلف .

وهذا هو الجانب القريب لتفعيل هذا الباب وأبعد منه ما ذكره الباقلاني يقول: «وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه، ويعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر»[3].

فجعله أداة تستبين بها حقائق الكلام، وينفذ منها إلى جوهر بلاغته، وإدراك جوهر الأدب من أعسر الأشياء وأغمضها، تلتبس فيه المسالك وتحتار بسالكه الطرقات، لكن إحكام هذا الفن يقصر المسافات التي تباعدت لتعدد مداخلها، ويسلك بها مسلكًا جامعًا لا يسد مسدّه فن من الفنون في تمييز صنعه للكلام . فبه يعرف سبيل كل شاعر في كلامه، ونهجه

(١)" إعجاز القرآن " ص٢٠٨ .

(٢) " إعجاز القرآن " الباقلاني ص٢٠٩ .

(٣) السابق نفسه .

في بيانه على ضروبه المختلفة ومقاصده المتنوعة فيدل على طبع كل شاعر من شعره، ويقتفي به آثار سيما شاعرية الشاعر بالوقوف على مجاري كلامه ابتداء، وأسلوب تنقلاته في معانيه وتحولاته وسطًا، وما يستقر عنده انتهاء.

والرازي انتقل بتنبيهات الباقلاني إلى أرض مباركة وهي القرآن، فتضاعف عطاؤها، وامتد بها إلى مجالات متراحبة تريك أفانين في تناول المعاني الواحدة، فوضعها في مواقع مختلفة وجعلها مرة ابتداء وأخرى وسطًا وثالثة انتهاء في تنقلات مختلفة تعطيها خصوصيات في كل سورة غير التي كانت عليها في السورة الأخرى، لذلك قسم السورة إلى جزئيات تطول وتقصر بحسب إتمام الجزء للفائدة، ثم يذكر تعلق الجزء بالمقاصد السابقة، ومكانه منها، وكيف انشق مجراه من جملة سابقة حتى استقر قراره . فعلاقات الجزئيات والفروع ليست بالضرورة قائمة على التتابع والتوالي . وإنما قد تنعطف الآية على سياقات أبعد مع تمكنها مع ما قبلها، وهكذا ترتب الآيات أحيانًا بالتوالي وأحيانًا بالتنادي . وهذا سنوفيه حقه – إن شاء الله – في موضعه أثناء الحديث عن التناسب بين الآيات داخل السورة .

والذي يعنينا في هذا الفصل هو عنايته بتقسيم السورة إلى ثلاث وحدات: الفاتحة، والوسط، والخاتمة، وحرصه على أن تنماز جملتا الفاتحة والخاتمة عن جملة الوسط بمحاولته تحديد منتهى الافتتاح وابتداء الاختتام . وهو بهذا التحديد لا يقطع ما بينهما من علائق وإنما يقف على الجزئيات ثم يلاحظ ما بينها من تفاعل وكيف يمد فيها المعنى المعنى ويساعد في تشكيله، وإن استقل العنصر الآخر بدلالته فهو لا ينقطع عن أصوله ونظائره في السورة . فكل جملة تظل تصحب الجملة الأخرى في جميع تحولاتها وتخلصاتها، فالبدء دومًا يستصحبه المفسر في تحليله وسطًا وآخرًا وكذلك الوسط والآخر في علاقات متبادلة لا تكاد تنقطع إلا عند الختام الذي ينعطف بالمفسر إلى الوسط ثم إلى البدء، فتحكم بتلك الارتدادات بنية الكلام، وتعطي غزارة للمعاني برد بعضها على بعض، فيبين بعضها دلالة بعض ويشرح مجمله، ويكشف ما استتر من غوامض معانيه، ويشكل دلالته بما يتلاءم مع معاني الجوار فتمدها وتستمد منها.

وهذا من النمط العالي في تحليل الكلام، واستخراج ما فيه من غزارة تكمن وراء تراكيبه وسياقاته المتنوعة والمتباعدة، ودراستها كمنظومة واحدة وإن استقلت بعض عناصرها بالفائدة من وجه فهي لا تنأى عن المقاصد والأغراض المجاورة.

وعنايته بالوقوف عند تحديد موقع جملتي الافتتاح والخاتمة، والوقوف على رسوم تعلقها مع أجزاء السورة ومكوناتها، لا نعلم أن أحدًا فيما سبق من علماء التفسير والإعجاز وقف عندها وأنعم التأمل لمكانه من الإعجاز، على أنه بالغ الأهمية؛ لأن معرفة بناء السورة وتعالق أجزائها وعناصرها لا يكون إلا بعد معرفة موقع ومكان كل جزء بنفسه ثم موقعه في غيره، ولم اختص كل جزء بمكانه، فتنظيم الكلام بالترتيب والتقديم والتأخير يكون لاعتبارات توجب أن يكون هذا أولًا، وذاك آخرًا ؛ لأن «الكلم ترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتًا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك»[1] .

فإذا كانت البلاغة توجب النظر إلى مواقع الألفاظ وترتيبها داخل الجملة فمن باب أولى اعتبار هذا النظر في دراسة بناء الكلام قرآنًا وشعرًا حتى لا يصبح نضدًا ورصفًا خاليًا من اعتبارات ترجع إلى معانيه المترتبة في النفس، فالنطق بالفاتحة ابتداء ليس خاليًا من دلالة وكذلك الوسط والخاتمة كل منها له أمكنة ومنازل أوجبت تقديم بعضها على بعض .

وهذا مقدم على دراسة الاعتبارات التي ترجع إلى علاقات الأجزاء، وكيف كان أحدها بسبب من الآخر، فالتنبيه على علل وضع الأشياء في مواضعها، وما مقتضى كون هذه الجملة فاتحة والأخرى خاتمة يضبط حركة المعاني داخل البناء، وينسب كل معنى إلى أصله، فالوصول إلى البنية المكتملة للكلام لا يكون إلا بعد إحكام النظر في مواقع عناصرها

(١)" دلائل الإعجاز" عبد القاهر ص ٥٦ .

وأماكنها على حدة، ثم النظر بعدها في علاقات الأجزاء، وهذا ما فعله الرازي في تفسيره رغم صعوبة بابه، وعسر ضبط الحد الفاصل بين العناصر المتداخلة حتى لا يدخل غيرها وإن كان من جنس معانيها فيها، وهذا التحديد لا يعزل الدلالات ولا ينفي التداخل بين العناصر المكونة للسورة، وإنما يوجه نحو خصوصية مواقع المعاني . وهو منهج يتجلى أيضًا في طريقة تقسيمه للآيات أثناء التفسير إلى مجموعات وفق تصوره للأغراض والمقاصد التي هي مضمون كل جزء، ثم يذكر الروابط بين الأجزاء ومكان بعضها من بعض .

ومما يؤكد تتبعه واجتهاده في استبانة ابتداء الجزء وانتهائه ما صرح به في تفسيره لسورة «يونس» من أن بدء مقاصد السورة من الآية الثانية يقول في الآية الحادية عشرة «إن الذي يغلب على ظني أن ابتداء هذه السورة في ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها»[1].

أي أنه كان أمامه توقعات واحتمالات حتى ترجح عنده تحديد الجملة. وأولى شبهات المنكرين للنبوة ذكرتها الآية الثانية وهي تعجبهم وتعجيبهم من تخصيص واصطفاء محمد ﷺ من بينهم بالرسالة والوحي، ثم توالت أنواع متعددة من الشبهات تتعلق جميعها بالمقصد الكلي، وهو نبوة محمد ﷺ ودحض الأباطيل التي رددها المشركون حولها، وسدّ جميع الطرق التي سلكوها لزعزعة الدعوة بالتشكيك أو بالمحاربة ومناصبتها العداء.

وعلى هذا يكون الافتتاح قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، جملة واحدة هيأت لما بعدها، ومكنت للدلائل والبراهين بجعل آيات السورة كحاكم يميز الحق من الباطل في الاعتقادات، «وكحاكم على أن محمد صادق في دعوى النبوة؛ لأن المعجزة الكبرى لرسولنا – عليه الصلاة والسلام- ليست إلا القرآن»[2].

ويلاحظ أن تحديد بدء الأغراض انعكس على تفسير جملة الافتتاح ووجه دلالتها نحو ما يتلاءم مع مقاصد السورة . فالتقسيم لا يوجه دلالة كل وحدة بمعزل عن سياقها بقدر

(١) "التفسير الكبير" ٦/ ٢١٨ .

(٢) "التفسير الكبير" ٦/ ١٨٥ .

ما يبحث عن الخصوصيات المتولدة من تآلف وتمازج كل قسم مع غيره من الأقسام الأخرى، وبهذا تتشكل وحدة هي نتاج ما بين هذه العناصر،وحاصلة من مجموعها .

وأما تحديد الخاتمة فالأمر فيها أظهر فهو غالبًا ما يصرح على أن هذه الآيات خاتمة السورة ثم يذكر علاقتها بما قبلها وعلاقتها بالفاتحة، وإذا لم يذكر ذلك أثناء تفسيره للسورة نبه إليه في مطلع تحليله للسورة التالية لها، كما في سورة «لقمان» لما لم يصرح بخاتمتها جاء في سورة «السجدة» فنبه عليها بقوله: «لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية، وذكر الأصل وهو الحشر، وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة»[1].

وهذا المقصد جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

والرازي في تحديده لا يعول على نسبة عددية معينة، فالفاتحة قد تكون آية واحدة أو آيتين وقد تطول إلى إحدى عشرة آية، وكذلك الخاتمة قد تكون آية أو أكثر وقد تختصر إلى أن تصير فاصلة الآية الأخيرة هي الخاتمة للسورة كلها، فتكون منقطع الجملة التي جرت في سياقها ثم تحور دلالتها إلى جميع أغراض السورة؛ لتجمع أطرافها، وهذا وعي بالغ ويقظة شديدة من الإمام لوظيفة الخاتمة، وأن ليس كل جملة صالحة لأن تكون منقطعًا للكلام، والضابط لهذا التحديد يقظة المفسر لمراتب المعاني داخل السورة وملاحظة أصول الدلالات وما بنى عليها من تفاريع. فالفاتحة غالبًا ما تأتي مجملة لأغراض السورة، ومنبهة على مقاصدها، والخاتمة صورتها أن تكون جامعة لما تفرق فهي دعامة تستقر عندها الجزئيات، وتكتمل بجوامعها المقاصد.

وهذا الفهم جارٍ على ما استقر في الدرس النقدي من تفريق بين مصطلحين هما المطالع والمقاطع، والمبادئ والانتهاء، فالمصطلح الأول وإن تقارب مع الثاني في اعتبار الموقع في أول

(١) "التفسير" ٩/ ١٣٥ .

الكلام وآخره، إلا أن هناك فروقًا دقيقة مناطها العموم والخصوص، فكل أول مطلع وكل آخر مقطع، وليس كل أول فاتحة، ولا كل آخر خاتمة، فهما مصطلحان لهما خصوصية يستقيانها من الدلالة، فحدودهما لا تقف عند الكلمة أو الجملة الأولى أو الأخيرة، وإنما تمتد إلى أكثر من جملة، فضابطهما شيات وأحوال تنعكس من المقاصد والأغراض التي يرومها المتكلم، فهذا ابن رشيق يؤكد على أن مصطلح المبادئ والانتهاء له خصوصية تضاف إلى كونهما أول الكلام وآخره، يقول: «فإن الشعر قفل أوله مفتاحه .... به يستدل على ما عنده من أول وهلة»[1] . وعلى الانتهاء أنه «قاعدة القصيدة »[2].

فكل منهما له وظيفة في فهم دلالة النص ومقاصده الكلية، فالبدء إيحاء ومكاشفة بعناصر تهدي إلى ما استكن من الأغراض، فيدل عليها. وأما الخاتمة فهي دعامة ترتكز عليها جميع المقاصد، ويستقر عندها ما تفرق من المعاني؛ لذلك جعلها قاعدة الكلام.

ومساحة جملة الفاتحة تطول وتقصر باعتبارات ترجع إلى حرصه على أن تستكمل الجملة جميع متعلقاتها اللغوية ومكوناتها البيانية، فغالبًا ما يتوقف في تفسيره أمام جملة البدء متتبعًا علاقاتها التركيبية واضعًا الترجيحات ومفترضًا الاحتمالات، ولا يقطع باليقين على أن هذا منتهى الجملة حتى يفتح أمامك بابًا من التأويل متسعًا يقلب فيه العلاقات اتصالًا وانفصالًا، ظاهرًا وباطنًا ثم لا يضع يدك على الراجح إلا عند ختام السورة بعد أن تكتمل المقاصد فيرد الخاتمة على ما ترجح لديه أنه الفاتحة . وهذا منهج حسن في الضبط ؛ لأن القطع بالتحديد بدءًا مظنة للزلل؛ لتداخل بنى الكلام .

وإبراز ما يصور ما وصفناه تفسيره لفاتحة سورة البقرة في قوله: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[البقرة :١-٥].

---

(١) " العمدة " ١/ ٢١٨ .

(٢) السابق ١/ ٢٣٩ .

فالعلاقات بين الجملة تحتمل الوصل التام حتى تصبح جملة واحدة تُنصب لغرض معين لا تكتمل الإبانة عنه إلا بالوقوف على مقطع الجملة الأخيرة وهي ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. أو تكون مقطعين الأول: الافتتاح، والثاني: بدء التفصيل لما تحمله من مضامين، فخلص إلى «وجوه ثلاثة: أحدها: أن ينوي الابتداء بـ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وذلك لأنه لما قيل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فخص المتقين بأن الكتاب هدى لهم كان لسائل أن يسأل فيقول: ما السبب في اختصاص المتقين بذلك ؟ فوقع قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ جوابًا عن هذا السؤال . كأنه قيل: الذي يكون مشتغلًا بالإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والفوز بالفلاح والنجاة لابد وأن يكون على هدى من ربه. وثانيها: ألا ينوي الابتداء به بل يجعله تابعًا للمتقين، ثم يقع الابتداء من قوله ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ كأنه قيل: أي سبب في أن صار الموصوفون بهذه الصفات مختصين بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلًا وبالفلاح آجلًا . وثالثها: أن يجعل الموصول الأول صفة «المتقين» ويرفع الثاني على الابتداء، و«أولئك»خبره، ويكون المراد جعل اختصاصهم بالفلاح والهدى تعريضًا بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله ﷺ وهم ظانون أنهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله تعالى»[1].

فقبل القطع بمنتهى جملة الفاتحة نجده يقف عند كل جزء وكل مقطع متتبعًا الخيوط الغائرة في غيب اللغة التي توجه دلالات الكلام وتصحح وضع كل جملة، وتبين سب أن اختصت بذلك دون غيرها .

وهو تتبع على هدى من الدلالة فيبين ما اتصل بسابقه، وما استقل فيكون مقطعًا جديدًا، فمتى أمكنه حمل الكلام على فائدة زائدة حمله عليه، وصرف النظر عن اعتباره تابعًا لحكم سابقه، وهذه وإن كانت منهجًا اختطه الرازي في جملة تفسيره إلا أنها في باب الفواتيح والخواتيم أظهر وأجلى.

---

(١) "التفسير الكبير " ١/ ٢٧٨ .

ثم وقف عند قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ مسترجعًا أقاصي الجمل، رادًّا عليها موقع هذه الآية؛ ليستبين طريق العلاقات والعناصر التي أدرجتها في حكم ما قبلها ودمجتها في السياق السابق لها، فكانت هناك علاقات متعددة أعطت فسحة من التأويل فعلى الوجه الأول والثاني تكون من تمام ما قبلها؛ لأنها من الاستئناف البياني مع فارق وهو أن الآية في الوجه الأول واقعة في سياق جملة ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ التي هي جواب عن سؤال أثارته ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فجاءت ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ جوابًا على هذا السؤال، وبيانًا لأوصاف المتقين.

أما الوجه الثاني فتصير ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى ﴾ بدء الاستئناف البياني، وعليه تكون بيانًا للطريقة الحميدة والعاقبة الحسنة التي إليها أمرهم، وهي الفوز بالهدى عاجلًا وبالفلاح آجلًا.

وفي كلا الوجهين نجد للكلام جذرًا واحدًا تتفرع منه الآيات وتدور في محيطه ولا تبتعد عن دلالته بزيادة سوى التفصيل والتفسير، وهذا الجذر هو قوله: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وما بعده واقع في ساقته[1] مدرج في حكمه، «فلا تكون محورًا وأصلًا في الكلام أو جذرًا من جذور معانيه ينبني عليه غيره ... فلم يصلح أن يكون جناح كلام في مقابلة خبر الذين كفروا»[2].

أما الوجه الثالث فعليه يصير الكلام مكتنزًا متعدد المضامين ؛ لأن الواو جاءت لتغاير بين الكلامين وتنبه على الخبيء ليطلب، وتدل على مكنون من المعاني جرى في سياق العموم لوصف المتقين ثم سلته الواو من ضمير اللغة فأبدته وأفسحت له حيزًا دلاليًّا مستقلًّا عن سابقه، وبهذا جعل الفاتحة تمهد لمقصدين وغرضين عليهما مدار السورة، المقصد الأول: التحدي بهذا الكتاب، وتقرير التحدي بكونه بلغ الغاية في الكمال لانتفاء الريب عنه ولكونه

(١) " الكشاف " الزمخشري ١/ ٣٤ .

(٢) " دلالات التراكيب " دكتور . محمد أبو موسى ص ٣١٦، ٣١٧ .

نبراس هداية للمتقين[1]. وينتهي هذا المقصد عند قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾. والمقصد الثاني: إقامة الحجة على أهل الكتاب بهدايته لأحبارهم المنصفين لتصديقه لما بين يديهم من «التوراة» و«الإنجيل» . وفي ذلك تأكيد لنفي الريب وهذه هي الوشيجة الواصلة بين المقصدين ثم تؤسس الآية لدلالة زائدة لم يحدث بها الكلام السابق فجاءت الواو؛ لتجذر لهذا المعنى، وتنبه على مفصل آخر من مفاصل الكلام التي تقوم به بعد ذلك المقاصد داخل السورة؛ لذلك جعل الموصول الثاني ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾مبتدأ وخبره ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾فهو جملة تامة منقطعة عن سابقتها . والموصول الأول ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ عام في حق كل من آمن بمحمد ﷺ سواء كان قبل ذلك مؤمنًا بموسى وعيسى- عليهما السلام - أولم يكن مؤمنًا بهما، والثاني: خاص بمن آمن به من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله[2]. وعطف الخاص على العام تنبيه على مزيد عناية بهذا الخاص؛ لأن «دلالة اللفظ العام على بعض ما دخله التخصيص أضعف من دلالة اللفظ الخاص على ذلك البعض؛ لأن العام يحتمل التخصيص والخاص لا يحتمله .. لأن في هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم ... ثم ترغيب لأمثاله في الدين»[3].

أي أنه لما كانت دلالة اللفظ العام لا تقوم بهذا المعنى، ولا توفيه حقه في الإبانة حيث يظل هامسًا في محيط اللفظ العام، عطف عليه الخاص؛ لينتزع دلالته ويجعله أصلًا تتفرع عنه أغراض مختلفة ويبني عليه ما بعده من الكلام؛ لأن الثناء على المؤمنين من أهل الكتاب هيأ لمعنى التعريض بأهل الكتاب الذين كفروا بنبوة محمد ﷺ وقالوا: تؤمن بما أنزل إلينا وهم يظنون أن ذلك هو الهدى . وعلى هذا يكون الكلام بيانًا للمنهج القويم والصراط المستقيم الذي سأله الحامدون لله في سورة الفاتحة، فطلبوا من الله المحمود قبل حمد الحامدين بصفاته المتفرد بها عن غيره أن يهديهم الصراط المستقيم، فجاءت هذه السورة لتدل عليه وتبين صفته لهم.

---

(١) " التفسير الكبير " ١/ ٢٦٩ .

(٢) السابق ١/ ٢٧٧ .

(٣) "التفسير الكبير" الرازي ، ١/ ٢٧٧ .

وقد بني سؤالهم في سورة «الفاتحة» على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم مع مجانبة ما تفرق طرقًا وتشعب بين الضلال والغضب فبنيت سورة «البقرة» على هذين المعنيين، وهذا وعي بالغ من الرازي حينما وجه دلالة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾نحو معنى التعريض بطريق أهل الضلال الذين تتبين لهم آيات الله فيعرضون عنها ويصدون من آمن بالله ويبغونها عوجًا، وهو معنى معتبر في السورة لذلك اقتنص الرازي دلالته من غيب التخصيص في جملة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾.

والرازي في «تفسيره» كثير التنقيب عن التوجيهات التي تفجر ينابيع الكلام، وتسمح بها تحت اللغة فتتدفق في غزارة وامتداد، وهذا التوجيه مثال واضح لهذه الطريقة التي تدل على ما يستنبطه الأسلوب من معانٍ تستكن تحت اللغة، ولا يهيج بلابلها ويجهر صوتها إلا عطفها على ما جرت به السورة من مقاصد وأحوال فتبعث فيها خصوصيات تكشف عن إجمالها فتبوح بخبيئها، فالسورة جرى فيها ذكر أهل الكتاب ومجادلتهم بصدق الرسول ﷺ وكثر فيها هذا المعنى وتنوعت عناصره حتى أصبح مقصدًا وأصلًا من الأصول التي تروم السورة تقريره، بل وأبلغ من ذلك إعادته واستحضاره في أسلوب صريح في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة:٦٢].

والعناصر اللغوية ليست وحدها سبيل اكتمال الدلالة وإنما وراء ذلك وشائج معنوية دقيقة، تقصيها تكتمل عنده هيئة المعنى والغرض الذي تروم جملة الفاتحة بيانه والدلالة عليه؛ لذلك نظر الإمام إلى هذه العناصر التي تشكل لبنات تجري مجرى التكميل .

وهذا يحتاج إلى فضل تأمل في ردِّ المعاني إلى أصولها وملاحظة المدى الذي تجري فيه منها.

فجملة الافتتاح في سورة «إبراهيم» تكتمل عند قوله:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤]؛ لأنه «تعالى لما ذكر في أول السورة ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ

لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ كان هذا إنعامًا على الرسول من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعامًا أيضًا على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين. أما بالنسبة إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام- فلأنه تعالى بيَّن أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولًا إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم، فإنه متى كان الأمر كذلك كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل وعن الغلط والخطأ، أبعد فهذا هو وجه النظم»[1].

فقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾أفاد عموم بعثته ﷺ وأنه مرسل إلى الناس كافة، وأن هذا الكتاب المنزل عليه هو الإمام الهادي والداعي إلى الحق، والنور الكاشف لحالك الظلمات التي تخبط في سراديبها الذين يستحبون الحياة الدنيا ويتناسون الآخرة فتصدهم الأهواء عن الصراط المستقيم، ويتردون في هاوية الطرق الملتبسة المعوجة فتتخطفهم هذه المفترقات لتقذف بهم في أودية الويل والعذاب الأليم.

فالآية تزاحمت فيها دلالات ضمنية نبذت في كلمات معدودة وهي: ذكر النعمة والمنعم عليهم والمنعم، وكل منها غرض في ذاته، لذلك مطل ذكر المنعم بعد ذكر النعمة؛ لبيان أن عظم منزلتها كونها من الله، فكان وصف المنعم زيادة في قدرها ومكانتها، ثم جاء ما بعدها ليبعث دفائن قوله: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ ﴾ فبنى عليه ذكر المنعم عليهم وهم الخلق حيث أرسل إليهم الرسل؛ ليرشدوهم إلى الحق ويخلصوهم من غمرات الضلال والعماية، فتضمن هذا معنى الإنعام أيضًا على الرسول باصطفائه واختياره؛ ليبلغ عن ربه وانتهاء أمر الرسالة إليه، وذلك من قوله: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ فاختيار «إلى» أفاد الغاية التي انتهى إليها المعنى وهو الإنزال ثم طوى تحت الغاية قصة تأريخ الرسالات و أحوال الرسل مع أقوامهم .

---

(١) "التفسير الكبير" ٧/ ٦٢ .

وبعد أن فرق هذه المعاني في زاوية مختلفة جمع بين أطرافها بقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

فاستحضرت مدخل الافتتاح وهو ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ فبينت أن من كمال هذا الكتاب كونه أنزل بلسان قومه؛ ليسهل عليهم الشرائع والحقائق، لذلك جاء التنكير في «كتاب» أي أنه كتاب أي كتاب . فهو عظيم الشأن قوي البلاغ تام الحجة لمن طلب الهداية وتفكر في بيانه. فإنزاله بلسانهم يسر لهم طريق الهداية لمن ألقى له السمع .

ثم ارتدت دلالتها إلى المنعم عليهم وقررت الإنعام السابق وزادت عليه ما يجري مجرى التكميل لهذا الأنعام، فعموم إرساله ﷺ للناس كافة بعد أن كان الرسل دعوتهم خاصة بأقوامهم، فالاصطفاء والاختيار وإن كان نعمة في حد ذاته إلا أن إرسالك يا محمد إلى عامة الخلق وعمومية دعوتك أتم النعم وأكملها .

والانتقال من خصوصية النعم إلى ذكر عامة الرسل يماس المعاني التي قبلها ويقررها ثم يهيئ لذكر أحوال الرسل مع أقوامهم قبل بعثة محمد ﷺ.

وكذلك اعتنى بالتدقيق في تحديد الخاتمة وخالف غيره في بعض المواضع كما في خاتمة سورة «مريم» حيث جعل الزمخشري قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم:٩٧] مقطعًا تنتهي عنده الأغراض فذكر أن «هذه خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال: بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه «بلسانك» أي بلغتك وهو اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه لتبشر به ... وقوله: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا ﴾ [مريم:٩٨] تخويف لهم وإنذار»[1].

بينما يعدها الرازي كلامًا مستأنفًا لغرض «بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين، فبين تعالى أنه يسر ذلك بلسانه؛ ليبشر به وينذر»[2].

---

(١) "الكشاف" ٣/ ٤٨ .

(٢) "التفسير" ٧/ ٥٦٧ .

ويجعل من قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ خاتمة للسورة، يقول فيها:«ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضًا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب»[1].

وتحديدها لموقع الخاتمة عول فيه على المقصد الكلي، فقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾يتلاءم مع غرض السور وهو الرد على أصناف الكفرة وشرح أحوالهم في الدنيا والآخرة »[2]، فناسب ذلك الاعتبار بمن سبق ليعلموا زوال ما هم فيه ومآلهم حتى يحذروا الدنيا ويخافوا سوء المآل في الآخرة .

وإذا كانت جملة الختام شديدة التعلق بما قبلها وجزءًا في بنائها وصلها بها دون عدها خاتمة للسورة مثل قوله تعالى:﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس:١٥]فالكناية جاءت عقيب ثلاثة مذكورات فكان لها ثلاثة وجوه «أولها: أنه كناية عن الرب تعالى! إذ هو أقرب المذكورات... المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب، فإن كل ملك يخشى عاقبة، فإنه يتقي بعض الاتقاء، والله تعالى لما لم يخف شيئًا من العواقب، لا جرم ما اتقى شيئًا ؟[3] وثانيها: أنه كناية عن صالح الذي هو الرسول أي لا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه .. وثالثها: المراد أن ذلك الأشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما أقدم من عقر الناقة لا يخاف عقباها. وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم .. والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البته فنسب في ذلك إلى الجهل والحمق»[4].

---

(١) "التفسير" ٧/ ٥٦٧.

(٢) السابق .

(٣) ينظر "الكشاف" ٤/ ٧٦١؛ لأنه تعريض بما ذكره .

(٤) " التفسير " ١١/ ١٨٠ .

فالجملة الأخيرة تجري في محيط ما قبلها على هذه التأويلات دون تدخلها في نسيج السورة كلها ؛ لذلك حصر دلالتها في بيان ما قبلها . بينما نجد الإمام البقاعي يلحظ موقعها في بناء جملة الافتتاح وجعلها تكملة للقسم الذي بدأت به السورة و زادت في تقريره؛ لأن «من له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها وهذا التدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة»[1].

ويمكن تصنيف العلاقة بين هذه الوحدات الثلاث كما يتناولها الرازي في ثلاثة محاور:

١- علاقة الفواتيح بالمقاصد .

٢- علاقة الخواتيم بالمقاصد .

٣- علاقة الخواتيم بالفواتيح .

(١) " نظم الدرر " ٨/ ٤٤ .

المبحث الأول

التناسب بين الفواتيح والمقاصد

تعد العناية بمبادئ الكلام إحدى الأصول البلاغية التي تجذرت في الدرس البياني، فقدمها قدم البيان، فهذا الحاتمي يعلل استحسان الأصمعي لمطلع قصيدة أوس بن حجر في الرثاء:

أيتهـــا الـنفس أجمـــلي جزعًـــا إن الـــذي تحـــذرين قـــد وقـعا

لتناسب الافتتاح مع المقاصد، والمذهب الذي بنى عليه كلامه، يقول: «لأنه افتتح المرثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب إليه منها في القصيدة، فأشعرك بمراده في أول بيت»[1].

وقد أدرك حذاق الشعر والعارفون بصناعته مكانة هذا الباب من البلاغة، لأنه يزدان به الكلام حسنًا، ويكسوه رونقًا، ويجعل عليه أبهة، فنحتوا مقاصدهم في الألفاظ ابتداء، ودلوا عليها؛ لينشط السامع معه لاستقبال الكلام ومتابعة الخطاب . فقد روي ابن رشيق عن بعض الحذاق بصناعة الشعر أنه قيل له: «لقد طار اسمك واشتهر . فقال: لأنني أقللت الحز، وطبقت المفصل، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم»[2].

فقوله: «حسن الفواتح والخواتم» يدل على أن الدلالة على الأغراض متلبس باللغة فليست قرطسة المقاصد بأدائها وإفهامها بمعزل عن اختيار الألفاظ ودقة انتظامها وترتيبها، مما يجعل رأس الكلام مستوعبًا لمراد المتكلم كله، فلا يجري وسط الكلام غرض ما إلا رأيت له صدى في الافتتاح، فمتى تتبعت منابعه ابتداء لم تخطئه.

---

(١) "حلية المحاضرة" ١/ ٩٤ .

(٢) "العمدة" ١/ ٢١٧ .

وهذه الأقوال نبهت الرازي إلى علاقة تصل أطراف الكلام في سياقاته المتباعدة وأغراضه المختلفة وتردها إلى نسب واحد وأصل فرد ينتظم به البيان، فلما أدار عليها تحليل السور ظهر بها مكان الإعجاز، وربا قدره؛ لأن فاتحة الكلام تشكل وشيجة تتعطف عليها عروق الكلام وأصوله وفروعه فهي مغرس جميع أغراض السورة .

ولا أعلم فيمن قبل الرازي من كشف القناع عن وجه الإبانة عن المقاصد في فاتحة القول، ولا من استكشف وجلى حقائقها في التفسير والتحليل على الوجه الذي ذكره الرازي وإنما استقر ذلك فيما بعد، فجعل معيار حسن المطالع بمدى استيعابها لمقاصد الكلام ودلالتها على أغراض المتكلمين، يقول حازم «هي الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجًا ونشاطًا لتلقي ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك»[1].

وقد حظيت الفواتح عند الإمام بكثير من العناية والتأمل، فكشف عن وجوه بلاغتها وبديع أسرارها ولطيف ترتيبها وانتظامها وما وراء مواقع الترتيب من إيحاءات بمعانٍ تستوعب السورة بجميع أغراضها المختلفة، وبهذا يلتقي مع عبد القاهر في أن الإعجاز في النظم والترتيب ليس باعتبار وضع كل لفظة موضعها الأخص بها، وإنما باعتبار الغزارة المستكنة خلف الألفاظ، فموقع اللفظة وعلاقتها المتشابكة مع ما قبلها وما بعدها يفتح أحوالًا متكاثرة ومعاني متنوعة، وهذا هو أصل المزية في النظم وبه يفضل كلام كلامًا[2].

ويؤكد ذلك ملاحظته توزيع الأساليب بين الافتتاح والوسط وأثره في إحكام العلاقة والمقاربة بين المقاصد والزيادة فيها كما في بدء سورة «الفاتحة» ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم جاء في الوسط ﴿ٱهْدِنَا﴾ فقارب بين الطرفين وأبعد المنتهى فـ «كأنه يقول: أيها العبد، ألست قلت في أول السورة: الحمد لله وما قلت: أحمد الله فذكرت أولًا حمد جميع الحامدين فكذلك في وقت الدعاء أشركهم فقل: ﴿ٱهْدِنَا﴾»[3].

---

(١) " منهاج البلغاء " ص ٥٠٩ .

(٢)" مراجعات في أصول الدرس البلاغي "دكتور محمد أبو موسى ص ١٩٦ .

(٣)" التفسير " الرازي ١/ ٢١٩ .

فهذه المقاصد استثارها تكرار الأسلوب ونبه على ما انطوى تحت اللغة من معان وأحوال، فقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ أنَّ معنى الاجتماع والتكافل الذي لفته «الحمد لله» في بيانها، فكان لسان العبد يقول: أحمدك كما يحمدك جميع العالمين فأنت المحمود بلسان جميع العالمين، فأثبت له ولغيره فعل الحمد، فكأن اللسان يلهج بحمد متتابع فلا ينقطع لسان عبد عن الحمد حتى يتحرك لسان آخر . وهذا المعنى كان صامتًا حتى جاء قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ فنبهت على خصوصية اختيار التحدث بالجمع وكونها مقصدًا رئيسيًّا في بناء هذه السورة، فأثبتت اللغة بلمحة دالة: أن المؤمن يتحرك في إطار الجميع في أقواله وأفعاله وظنونه، فكما هو يثني على أخيه المؤمن ويثبت له الخير، فكذلك في وقت الدعاء يسأل له الخير كما يسأله لنفسه .

فالرازي في دراسته لنظم الافتتاح لم يكن يبحث في أبلغية اللفظة أو الأسلوب بقدر ما كان يتتبع منابع الغزارة في الجمل ويروز ما تحت بلاغتها من معانٍ نبذت بها اللغة نبذًا مختصرًا ثم نمت هذه العناصر وشكلت أغراضًا أصلية في بناء السورة .

وأبسط تصور لجملة الافتتاح يكون بتتبع عناصرها في الجملة الموالية لها، وكيف تناسلت في بيانها وانحلت في نظمها فنبه على مداخل تلك الجمل في الافتتاح وموقعها منه فتارة تأتي شرحًا وتفصيلًا كما في سورة «الأنفال» في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١].

ثم والاها بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال :٢] لأنه لما قال: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزمًا للطاعة، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل، وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات»[1].

(١) "التفسير" ٦/ ٤٥.

وفسر الزمخشري قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بأنها «إشارة إليهم أي أنهم الكاملون الإيمان، من صفتهم كيت وكيت»[1].

وهذا ظاهر أنه في حدود الجملة المفردة، أما الرازي فقد لاحظ ترتيب الطاعة على الإيمان وما وراء ذلك من مقتضيات أبهمت تحت ذلك الترتيب فجاءت الجملة التالية إشباعًا لدلالتها ومزيد تفصيل لها.

وكذلك جملة الافتتاح في «الحج» في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾

[الحج: ١، ٢].

ولم يجعل الآية التالية تفصيل وبيان لزلزلة الساعة؛ لأن مقصد السورة وغرضها الإنذار بالساعة وبيان أحوالها، وجعل بدء التفاصيل في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:٣]. يقول في وجه تعلقها بالمطلع: «أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس إلى تقوى الله. ثم بين في هذه الآية قومًا من الناس الذين ذكروا في الأول وأخبر عن مجادلتهم»[2].

وأما في سورة «فاطر» فيأتي قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾[فاطر:٣]؛ لأنه «لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال، فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾»[3].

وفي مواقع أخرى تجاذب الآية والموالية أطراف المطلع فتفصلها ثم ترتد إلى رأس الكلام مثل سورة «الأنبياء» حيث جاء قوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنبياء:٦، ٧]

---

(١) "الكشاف" ٢/ ١٩٥.

(٢) "التفسير" ٨/ ٢٠٢.

(٣) "التفسير" ٩/ ٢٢٢.

فلما طلبوا آية جلية في قوله: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[الأنبياء:٥]. «بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنبياء:٦].

وأجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[الأنبياء:٣] بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾. فبين أن هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد ﷺ ولم يمنع ذلك من كونهم رسلًا للآيات التي ظهرت عليهم فإذا صح ذلك فيهم ظهر على محمد مثل آياتهم»[1].

وأحيانًا تأتي الجملة مؤكدة لمقاصد المطلع وبناء عليها، كما في سورة «المؤمنون» حيث جاء قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[المؤمنون:١٢]. فـ«لما أمر بالعبادة في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعًا»[2].

ويمتد تتبعه ليستوعب جميع مكونات السورة ومعانيها وما نمى منها وكونه غرضًا بذاته وأوضح ما يصور ذلك وقوفه عند جملة المطلع في سورة «النساء» وتحليله لعناصرها وما يندرج تحتها من صفات مقاصد انجرت وسط السورة . فجملة المطلع هي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]. فقوله: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ لها موقعان: أحدهما: باعتبار ما قبلها، يقول: «اعلم أنه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقيبه أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، وهذا مشعر بأن الأمر بالتقوى معلل بأنه خلقنا من نفس واحدة»[3].

---

(١) "التفسير" ٨/ ١٢٢ .

(٢) السابق ٨/ ٢٦٤ .

(٣) " التفسير " ٣/ ٤٧٩ .

فتصير هنا ابتداء أمر رتبت عليه علته، والثاني: يردها إلى مقاصد السورة ويجريها بين أعطاف أغراضها فتتهيأ بهيئة أخرى ؛ حيث تصبح علة لجميع الأغراض داخل السورة وقدمت العلة على معلولها لموجب بياني، لما كثرت فيها التكاليف والفرائض مما قد يحصل منها مشقة على النفوس، فابتدرها بذكر الامتنان والإنعام الذي أسبغه العزيز الحكيم على العباد، ولا أعظم ولا أبلغ في قود النفوس من التذكير بالنشأة الأولى وخلقهم من العدم، والإنعام عليهم بعد الإيجاد والتخليق بأن جعلهم أمة واحدة وجعل بينهم المودة والرحمة، مما يوجب الامتثال للتكاليف والفرائض، يقول في ذلك: «ولما كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطبع لا جرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة وهي تقوى الرب الذي خلقنا والإله الذي أوجدنا»[1].

وتكررت أيضًا وسط السورة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء:١٣٥].

يقول فيها: «تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط، كما قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾. وأمرهم بالإشهاد عند دفع أموال اليتامى إليهم، وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله، وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن أبيرق واجتماع قومه على الذب عنه بالكذب والشهادة على اليهودي بالباطل، ثم إنه تعالى أمر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزوجة، ومعلوم أن ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط، شاهدين لله على كل أحد، بل وعلى أنفسهم، فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ما جرى في هذه السورة من أنواع التكاليف»[2].

---

(١) "التفسير" ٣/ ٤٧٥.

(٢) "التفسير" ٤/ ٢٤٠، ٢٤١.

وأيضًا ملاحظته لموقع القيدين في جملة ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ومراجعة صداها المتردد في سياقات السورة، وسلطته على الأغراض الأصلية والفرعية يقول:«إن الأمر بالتقوى معلل بأنه تعالى خلقنا من نفس واحدة ولكل من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى .. فمعرفة أنه خلقنا علة لوجوب الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأمره والاحتراز عن نواهيه.

ومعرفة كيفية التخليق يدل على كمال قدرته وله فائدتان: الأولى: أنه لما دلت هذه الدقيقة على أن مدبر العالم فاعل مختار قادر على كل الممكنات عالم بكل المعلومات فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان ارتباط قوله: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ بقوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ في غاية الحسن والانتظام[1].

فالالتزام بالتقوى معلل بذكر نعمة الخلق التي هي كفيلة في ذاتها بالانقياد والخضوع لأوامره لكن حينما أضيف لها قيد آخر وهو ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ المبينة لكيفية التخليق زادت في معنى الأنعام معنى كمال القدرة، فإذا لم تكن نعمة الإيجاد والخلق ملزمة على التقوى فإن المعرفة بالمنعم وقدرته وعظيم صفاته وحدها موجبة للانقياد له وإقامة تكاليفه وأداء فرائضه.

والفائدة الثانية: تشربتها الدلالة من السياقات المتنوعة في السورة، فاتصالها بقوله: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

[النساء:٢].

فتفصيل الخلق بكونهم خلقوا من نفس واحدة له أثر في تقرير المعاني الخاصة بإيجاب الحقوق بينهم،و هو من المعاني الأصيلة التي دارت عليها السورة، فكون الناس من أرومة واحدة يزيد في إيجاب الشفقة بينهم وتعطف بعضهم على بعض وأيضًا ترك المفاخرة، مما يشيع بينهم حسن الخلق والتواضع؛ لذلك قرن عبادته بأداء الحقوق بين الناس في قوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ

(١) " التفسير " الرازي ٣/ ٤٧٧ ، ببعض التصرف .

وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء:٣٦].

فالإلزام ببر الوالدين والإحسان إلى دي القربى وحفظ الحقوق بين الناس على تنوع أصنافهم مقرون بعبادته وتوحيده وهو «أمر بصلة الرحم كما ذكر في أول السورة بقوله: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾»[1].

ثم ينبه الرازي على سبب أن ذكر في الفاصلة الاختيال والفخر في سياق الأمر بالصلة والبر بحقوق الله وحقوق العباد، وذلك لخصوصية بلاغية، فـ «إنما خص الله تعالى هذين الوصفين بالذم في هذا الموضع؛ لأن المختال هو المتكبر، وكل من كان متكبرًا فإنه قلما يقوم برعاية الحقوق، ثم أضاف إليه ذم الفخور؛ لئلا يقدم على رعاية هذه الحقوق لأجل الرياء والسمعة، بل لمحض أمر الله تعالى»[2].

وهذا تحقيق لمعنى التقوى المأمور به ابتداء، لأن النفس متى تمحضت فيها تقوى الله باعدت بينها وبين كل ما ينزعها إلى التمرد على فرائضه وتكاليفه، وبين أن تتخذ من القيام بالحقوق ذريعة وسلمًا ترقى به درجات تبرزه، وتظهره للناس، وهذا من التواضع الذي يفضي إلى كبر،وإنما يحب الله من تطامن وخفض رأسًا لأمر الله لا يبتغي من الدنيا عرضًا ومبلغًا .

وأظن أن هذه الآية هي التي بنى عليها الزمخشري ترجيحه؛ لأن المقصود بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾: «تقوى خاصة وهو أن يتقوه مما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ... وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة»[3].

ويتتبع الرازي تفريعات المعاني داخل السورة وتولدها من جملة الافتتاح وكيف بنى بعضها على دلالتها، فجملة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[4] تضمنت كثيرًا من المعاني الفرعية،

---

(١) " التفسير " ٤/ ٧٦.

(٢) السابق ٤/ ٧٨.

(٣) " الكشاف " ١/ ٤٦٢ .

(٤) "التفسير" ٣/ ٤٧٧ .

فالحديث عن المعاد راجع إليها «لأن من كان قادرًا على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصًا مختلفين فكيف يستبعد عليه إحياء الموتى وبعثهم»؟

وقد جاء ذكره صريحًا، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧].

وأخرى مكنيًا في سياق الحديث عن الجهاد، كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:٩٧].

وثالثة في سياق الحديث عن النبوة في قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

وأيضًا في بيان جزاء من صدق وآمن بآيات الله وما أنزل على النبيين ومن كفر بها وصدّ عنها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[النساء:٥٦،٥٧].

وروى أيضًا قولًا آخر في تضمين قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ لمعنى النبوة والتوحيد، فقد «ذكر الأصم أن ﴿ خَلَقَكُم ﴾ دليل على معرفة التوحيد، وقوله: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾دليل على معرفة النبوة »[1].

وهذان المعنيان يتخللان التكاليف ويجريان في محيطها وأحيانًا يكونان غرضًا برأسه، فآيات التوحيد تستقل تارة كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨]. وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[النساء:١٣٢].

---

(١) "التفسير" ٣/ ٤٧٧.

وأحيانًا تأتي لتقوية الأوامر والنواهي وتساند دلالتها كما في قوله عز وجل: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا * وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء:١٢٩-١٣١].

وأما النبوة فأمرها ظاهر؛ لأن تقوى الله لا تقوم إلا بإقرار ما جاء به الأنبياء وتصديقهم؛ لذلك اقترنت بطاعة الله كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

ويقف عند جملة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ فيستحضر الأمر في مدخل الآية وهو ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فيرد التكرار في العجز على دلالة الصدر، وكأن هذا التكرار يبرز عنصرًا مجملًا في بناء مدخل جملة الافتتاح فينصه ويخصه بالذكر والتفصيل لمكانه من مقصد المتكلم، يقول في الوجوه المستفادة من التكرار: «وذلك لوجوه: الأول: تأكيد الأمر والحث عليه .. والثاني: أنه أمر بالتقوى في الأول لمكان الإنعام بالخلق وغيره، وفي الثاني أمر بالتقوى لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض . والثالث: الرب لفظ يدل على التربية والإحسان، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة، فأمرهم بالتقوى بناء على الترغيب، ثم أعاد الأمر به بناء على الترهيب»[1].

فالقيام بالحقوق بين الناس بعد أن كان همسًا خفيًّا في دلالات متكاثرة ومتنوعة للتقوى سل من بينها وأبرز سياقًا له خصوصية وعناية زائدة وكأنه جنس مستقل، فاستقلاله بالبيان يقابله استقلال في مكانه في باب التقوى .

---

(١) "التفسير" ٣/ ٤٨٠ .

ثم إن المكاشفة بها خصوصًا بعد أن كانت تجري في عموم حقوق مختلفة فيه إنباء بمضمون السورة، فالعناية بهذه التقوى في وسط السورة وسيطرته على الأغراض المتنوعة داخلها امتداد لهذا المطل في جملة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

ويرد الرازي سبب غزارة المعاني المتولدة من عطف جملة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ برده إلى الخصوصيات التي روعيت في اختيار كل لفظة . ووضعها في الموقع الأنسب والأصلح لها، فتكرار الفعل ﴿ٱتَّقُواْ﴾ واستحضاره مرة أخرى أكد المعنى الأول وزاد فائدة في الحث على المسارعة في أدائه، ثم جاءت الفروق بينهما من خلال القيدين؛ لتفتح قناة لسياقين متغايرين فالأولى تجري في سياق الإنعام؛ لأن القيد تذكير بالخلق الأول ونعمة التآلف والتكاثر التي تمت بها النعمة الأولى، فناسب ذلك لفظ الرب . أما الجملة الثانية فقد جاءت في سياق الإنعام فيما يلتمس بعضهم من البعض من حقوق وواجبات يصلح بها معاشهم، فناسب هذا الموقع التذكير بالألوهية المتضمنة لمعنى القهر والاستعلاء.

وتعدى الفعل الواحد إلى صفتين متقابلتين نزع بالسياق نحو بنائين كل منهما له خصوصية، فالجملة الأولى: بنيت على الترغيب لما فيها من التلطف بذكر صفة الربوبية وماتستلزمه من الإحسان والرحمة بهم كما هو حال المربي وشفقته على من تحت يده.

والثانية: بنيت على الترهيب بذكر الألوهية و ما تنطوي عليه من أحوال العلو وكمال القدرة وجميع ما من شأنه أن يوقع في النفس الهيبة فتقف عند أوامر الله ونواهيه مطأطأة الرأس لما يوجبه الله تاركة كل هوى. وهذه المراوحة بين الترغيب والترهيب وبناء صدر الافتتاح على الترغيب ثم تصعيد الإلزام بالترهيب في العجز هو صدى للمذهب والبناء الذي بنيت عليه الأغراض في ثنايا السورة حيث سيطرت على حركة معانيها المراوحة بين الوعد والوعيد فتجد الأوامر والنواهي تنمو وتتصاعد في أجواء الترهيب والترغيب، يقول في ذلك: «اعلم أنه تعالى أكد الوعيد في أكل مال اليتيم ظلمًا وقد كثر الوعيد في هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾

النساء:١٩. ثم ذكر بعدها هذه الآية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم، وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى»[١].

وأيضًا في سياق المواريث فـ «بعد بيان سهام المواريث ذكر الوعد والوعيد ترغيبًا في الطاعة وترهيبًا عن المعصية».

فمداخل الكلام لها خصوصية في الإبانة والتأني للأغراض؛ لذلك يكتنفها كثير من الغموض لدقة الدلالة واكتنازها فتحمل اللفظة حمولة دلالية تكاد تحتوي جميع مقاصد السورة، وهذه الخصوصية هيأت لتمكن جملة الافتتاح في موقع الصدارة من الكلام.

وقد نبهت دراسته للمكونات البلاغية المشكلة لجملة الافتتاح على أن هذه الجملة لها هيئة تصير بها لائقة أن تكون بدء الكلام ومفتتحه، ويرد خصوصياتها غالبًا إلى مداخلة المقاصد والأغراض لألفاظها وتعطفها بين كلماتها وهذا ظاهر في مراجعته لما تحت ألفاظها من معانٍ، وما في ترتيبها من لطف ودقة وتناسب، وما وراء التناسب في الانتظام من معانٍ وإيحاءات تطبق مفصل السورة، وقد قرر حازم ذلك فيما بعد وجعله أصلًا في دراسة المبادئ يقول: «وفي الكلام ماله صورة يصير بها لائقًا أن يكون رأس كلام ومفتتح قول، ومنه ما لا يليق بالمبادئ، ولا يكون له هيئة تصلح لها»[٢].

وهذه الهيئة يسرت لجملة الافتتاح أن تصحب الكلام في جميع تحولاته وتنقلاته، فقد تتبع في تفسيره للآيات ترتيبها على المعاني ابتداء، وكيف تنسل الأغراض والمقاصد داخل السورة من أصولها في الافتتاح، فكشف بذلك عن العمق الدلالي لبناء جملة الافتتاح واتساعه ليشمل جميع المقاصد والأغراض وسط السورة، وقد هيأ لهذا العمق خصوصيات بلاغية من الإيجاز ودقة الاختيار وحسن الترتيب.

---

(١) "التفسير" ٣/٥٠٦.

(٢) "منهاج البلغاء" ص ٣١٠.

وغالبًا ما يعول في استثارته للمعاني على حسن الترتيب ويجعله المنظم لبناء المعاني وتفريع بعضها على بعض نحو ما ذكره في افتتاح «آل عمران»: ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١،٢].

فالسورة تتضمن الرد على النصارى الذين نازعوا الرسول ﷺ في دينه لتقرير صحة ما أتى به وصدقه، وبالغت في كشف جميع الشبهات ليثبت ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ يقول الرازي في بيان ذلك: «اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله ﷺ كأنه قيل لهم: إما أن تنازعوه في معرفة الإله، أو في النبوة، فإن كان النزاع في معرفة الإله وهو أنكم تثبتون له ولدًا وأن محمد لا يثبت له ولدًا فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم، والحي القيوم يستحيل عقلًا أن يكون له ولد وإن كان النزاع في النبوة، فهذا أيضًا باطل؛ لأن بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل «التوراة» و«الإنجيل» على موسى وعيسى فهو بعينه قائم في محمد ﷺ، وما ذاك إلا بالمعجزة وهو حاصل ههنا، فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة، فهذا هو وجه النظم وهو مضبوط حسن جدًّا .... ثم إنه تعالى لما ذكر ما هو العمدة في معرفة الإله على ما جاء به محمد ﷺ، وما هو العمدة في إثبات نبوة محمد ﷺ لم يبق بعد ذلك عذر لمن ينازعه في دينه فلا جرم أردفه بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤] فقد ظهر أنه لا يمكن أن يكون كلام أقرب إلى الضبط وإلى حسن الترتيب وجودة التأليف من هذا الكلام»[1].

فبناء الجملة على الإجمال أحال على لوازم متكاثرة كونت فيما بعد أغراضًا ومقاصد دارت عليها السورة، فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أثبتت أن العبادة لا يستحقها إلا الله، وأقامت دعوى على النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام، ثم بنى عليها الأدلة و رتبها باختيار وصف الحي القيوم دون غيرهما من صفات الألوهية، فجمع وجوه الدلائل المبطلة لشبهات

(١) "التفسير" الرازي ٣/ ١٢٩.

النصارى في تأليه عسى عليه السلام لأن صفة الحي ترتب عليها نفي الولد، فمتى امتنع أن يتخذ الإله ولدًا امتنع كون عيسى عليه السلام ولدًا، والقيوم أنه لما كان عيسى عليه السلام يأكل ويشرب ويحدث امتنع كونه إلهًا،[1] لأن هذا منافٍ للقيومية، فمن لم يكن قائمًا بذاته فلن يستطيع أن يكون مقومًا لغيره.

ثم بنى الدعوى الثانية على حذو بناء جملة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فأجرى دعوى إثبات نبوة محمد ﷺ بتقرير صدق المعجزة التي تثبت بها نبوته ﷺ ورتب عليه الحجة المصدقة لها، وهي أن العلم بأن «التوراة» و«الإنجيل» كتابان إلهيان حاصل من قيام المعجزة وهي العلامة الفارقة بين القول الحق والباطل، وهذه الدلالة بين المعجز وغيره كما هي هادية إلى كونهما نازلين من عند الله، قائمة في «القرآن» فترتب عليه تصديق كونه منزلًا من عند الله ومتى كان الطريق مشتركًا فالواجب تكذيب الكل أو تصديق الكل أما الانتقاء المحتكم إلى الأهواء والتشهي فجهل وتقليد.

وتلتقي جميع الأغراض والمعاني عند هاتين الجملتين، فالسورة تصور شبهات الفرق الضالة من اليهود والنصارى والمنافقين ومحاولاتهم الدائبة للتشكيك في الدين والتلبيس على المؤمنين وزعزعة استقرار حسن العقيدة في نفوسهم؛ لذلك عمدت في الافتتاح إلى معنيين هما عمدة في تقرير أمر هذا الدين، وأصلين يحفظانه من المشبهات وتثبت بهما أركانه وهما: معرفة الإله ومعرفة النبوة.

وقد جاء تقرير الدين والتنبيه على مكانته، وأنه المنهج الأقوم الذي اصطفاه الله وجعله ختامًا لرسالته صالحًا للناس كافة، جاء في سياقات الحديث عن الألوهية، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

(١) "التفسير" ١٢٩/٣ بتصرف.

مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٤،٨٥].

وأيضًا بعد ذكر شهادة الله والملائكة والنبيين بوحدانية الله يقول عز جل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران:١٨،١٩].

وفي سياق الإلزام بنبوة محمد ﷺ، وأن الإيمان به شرع شرعه الله على النبيين من قبل حيث قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[آل عمران:٨١-٨٣] .

ثم بينت السورة منهج وطريق من يشتبه عليه الدين، ويشبه على الناس بإلقاء الشبهات وإشاعتها ليزلوهم ويردوهم في تيه الكفر والضلال فتردد فيها التحذير والوعيد لأهل الكتاب من إغواء وإضلال المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:١١٨].

وأما قصة هزيمة أحد فقد تجاذبتها سياقات مختلفة من السور، فمرة تجري في سياق التحذير عن مخالطة الكفار أو الاحتكام إلى ما يلقونه بألسنتهم؛ ليوهنوا به عزم المسلمين ويفرقوا به وحدتهم وكلمتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٩].

وتارة تجيء في سياق تقوية الإيمان وتمحيص المؤمنين الصادقين الصابرين من المنافقين، فجاءت هذه الهزيمة تربية للنفوس المؤمنة على تقلبات المواقف ومداولة النصر، وإن هزيمة الحق لا تحط من شأن هذا الدين، ولا تعلي من وهج الباطل، وإنما هي سنة من سنن الله في الابتلاء وتصريف الأحوال للكشف عن معادنهم، وليميز الخبيث من الطيب «فإن نصر بدر فتح الطريق أمام المغامرين وطلاب المصلحة كي ينتموا إلى الدين الجديد»[1] تطلعًا لما تمده يد المستقبل لهم من خير ورفعة، فأذاقهم الله البأساء والضراء؛ ليستخرج الصفوة من الصديقين، فهذه الهزيمة لا تهز من ثبات ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وإنما خلت في الأولين، وقد ذكرهم سبحانه بحقيقة ذلك في قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

وبهذا يتبين أن إجراء الافتتاح على تقرير الألوهية والنبوة لأمر معتبر تناط به مقاصد السورة، فهما الرباط الناظم لما اختلف وتفرق من أغراض وسطها فردها إليه يجعل من السورة بيانًا واحدًا لا اختلاف فيه وإنما يتنوع ويتفرق فتتولد منه فروع متعددة، تشقق دلالة المقصد الكلي، وتشبع زوايا المعاني في جهاتها المختلفة، ومع ذلك لا تخرج عن سيطرة المقصد الأصلي وتحتكم إليه في حركتها وتحولاتها.

وسورة «الزمر» وإن التقت في مقصدها مع «آل عمران» في إثبات الألوهية لله وتقرير حقيقة هذا الدين وإيجاب صرفه لله، إلا أن هناك فروقًا يؤسس لها الافتتاح فيبنى على أصول تختلف من سورة إلى سورة تتنوع تبعًا لها الإبانة عن المقصد الواحد، فاختلاف تناول الألوهية وتنوع مقاصده في سورة «الزمر» عنه في «آل عمران» يرجع إلى اختلاف الأصول التي أصل لها الافتتاح وبنى عليها.

وليتبين ذلك فتأمل قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن

(١)" نحو تفسير موضوعي " محمد الغزالي ص٣٨ .

دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ * لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾الزمر:١-٤].

فالسورة خطاب لمشركي مكة ومحاجة لهم وتسفيه لمعتقداتهم من اتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله وصرفهم العبادة لها مع علمهم بنقصها وكمال الله وعجزها واستغناء الله، فبنيت الجملة على تقرير الألوهية لله، ونفيها عما عداه وتنزيهه عن الشريك والولد وإخلاص الدين لله بصرف العبادة له دون غيره، وقررت هذا المقصد الكلي بأصلين هما: كمال القدرة، وكمال الاستغناء، يقول في ذلك: «فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة، وعلى كمال الاستغناء ....، وأيضًا فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الألوهية»[1].

وسبقت هذه الأدلة أسلوب غاضب للألوهية التي أبيحت لغيره ونازعه فيها – تعالى عما يشركون – من لا يستحقها ولا يقوم بوصفها، وهذا المعنى هو قلب السورة الذي يتحكم في توزيع المعاني داخلها فنجده يتردد صريحًا وضمنيًّا يصور ذلك قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾الزمر:٦٧]. وقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾الزمر:٢٩].

فمدار آياتها على الإثبات والنفي وقد سار هذان المعنيان جنبًا إلى جنب في غالب آياتها، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾الزمر:٦٤].

لذلك جعل الإمام معنى الحصر معنى معتبرًا في السورة، فعندما يفسر قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾. يقول: «إنا إذا قلنا: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله لا من غيره، وهذا الحصر معنى معتبر أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة».[2]

---

(١) " التفسير " ٩/ ٤٢٣ .

(٢) " التفسير الكبير " ٩/ ٤١٨ .

وابتدأ السورة بإثبات أن الكتاب منزل من الله ثم إردافه بأوصاف الألوهية وهي «العلم بجميع المعلومات، والقدرة على كل الممكنات، والاستغناء عن كل الحاجات »[1]؛ لأنه متى تمكن هذا المعنى استهالها للاستماع ومن ثم انتفعت بما يرد عليها من خطاب.[2]

وأما في «آل عمران» فقد ابتدأت بإثبات الألوهية ثم بنى على تقريرها إثبات نبوة محمد ﷺ وأن ماأتى به صدق، لأنه تنزيل من الله المتفرد بألوهيته وصفاته.

وهذا توجيه حسن من الرازي راعى فيه مقاصد السور فمعنى إنزال الكتاب من الله يتكرر كثيرًا في «القرآن» في صياغات متقاربة، لكن وضعه في بيان السورة وسياقها يعكس عليه خصوصيات يمتاحها من مقاصد الكلام ومجريات الخطاب.

وبعد أن أثبتت الآيات أن الكتاب تنزيل من الله لا من غيره أردفه ببيان أعظم مقاصد الإنزال وهو «أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله بالكلية»[3].

فتغير المعاني وتزايد الخصوصيات في المعنى الواحد يكون باعتبار جرياتها وتعطفها في ثنايا المعاني المتلبسة بسياقها فتأخذ من أحوال ما تجاور معها، فالقرآن مدار معانيه على تقرير مطالب أربعة معانٍ كلية وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر تارة يكون التوحيد هو الأصل ويبني عليه النبوة والمعاد، وتارة يتحول ما هو فرع على أصل في صورة أخرى وتبنى عليه المعاني الأخرى لذلك يلزم معرفة ما يجري إليه الكلام بملاحظة ما يؤسس عليه رأس الكلام من أصول المعاني ثم تتبع ما بني عليها من معانٍ أخر، ويتضح هذا الفهم أيضًا في تحليله لسورة «الصافات» حيث يقول: «اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا

(١) " التفسير الكبير " ٩/ ٤١٩ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) " التفسير " الرازي ٩/ ٤١٩.

الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي: الإلهيات، والمعاد، والنبوة، وإثبات القضاء والقدر، فنقول: إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته، وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب، فلما أحكم هذا الباب فرع عليه إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة»[1].

لذلك كان الرازي يعول على جملة الافتتاح في دراسة مقاصد السورة فيتتبع المعاني التي أحكمتها وأجملتها ثم يتتبع ما بني عليها من تفريعات كانت أصولًا في سورة أخرى ثم تحولت فروعًا تسقي دلالة الأصل وتجري في مداره.

وفي علاقة الأغراض الفرعية في داخل سورة «الزمر» برأس الكلام نجده يستحضر الأصول التي بني عليها الافتتاح ويحرك دلالتها من هذه الأصول، فوصف أحوال القيامة في سياق كمال القدرة الدالة على تفرده بالألوهية يخرج بالمعنى من غرض إثبات البعث ليصور كمال الهيمنة الموجبة لعبادته دون سواه، يقول في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] يقول فيها: «واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمته بما سبق أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضًا على كمال قدرته وعظمته، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة»[2].

ونبه أيضًا على سيطرة أصول الافتتاح على ترتيب الأساليب داخل السورة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

فتقديم صفات القيامة على صفات الدنيا لصلته بالأصل الذي دارت عليه السورة وهو عبودية الله وحده دون سواه؛ لأن «شرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا؛ لأن

(١)" التفسير " ٩/ ٣٢١.

(٢)" التفسير الكبير " ٩/ ٤٧٩.

الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض»[1].

وكذلك توجيه اختيار بعض الصفات باعتبار ما يشع عليها من أحوال المقصد الكلي يقول في اختيار وصف المتقين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[الزمر:٣٣]. «وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء، والآتي بأحد الضدين يكون تاركًا للضد الثاني، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركًا للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين»[2].

وهذا أصل بنيت عليه السورة ابتداء فهي قائمة على الإثبات والنفي وحصر الألوهية في الله دون سواه، فتقرير التوحيد وحده ليس هو المطلب وإنما تعدى الإقرار بالتوحيد إلى ترك الشرك فالاتقاء هو اجتناب الشرك .

وتتنوع دراسته للفواتح تبعًا للتنوع في الجملة القرآنية، فبعد أن أشار إلى النوع الذي ينبذ في كلماتها أصول الأغراض التي جرت في وسط السورة ودارت عليها مقاصدها يشير إلى نوع آخر ثانٍ فيه الفاتحة مهيئة ومجملة للأغراض، كما في سورة «النور» في قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور:١].

ويصف الرازي القيمة البيانية للإجمال وكيف طوي تحت لغته جميع الأغراض ودل عليها فأقام طنبها ثم فصل كل جهة حسب ترتيبها وموقعها ابتداء بقوله في ذلك: «إنه سبحانه ذكر في أول السورة أنواعًا من الأحكام والحدود وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ إشارة إلى الأحكام التي بينها أولًا ثم قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ إشارة

(١) السابق ٩/ ٤٤٠ .

(٢) "التفسير" ٩/ ٤٥٢، ٤٥٣ .

إلى ما بين من دلائل التوحيد، والذي يؤكد هذا التأويل قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فإن الأحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها، أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها ... قال القاضي: إن السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحثات بأن بينها الله تعالى، ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلًا وصف الآيات بأنها بينات»[1].

ونوع آخر تجد فيه جملة البدء حاملة للمقصد الكلي الذي ترتكز عليه الأغراض المختلفة داخلها كما في سورة «المائدة»، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

[المائدة:١].

يقول الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قرر بالآية الأولى على جميع المكلفين أنه يلزمهم الانقياد لجميع تكاليف الله تعالى وذلك كالأصل الكلي والقاعدة الجملية، شرع بعد ذلك في ذكر التكاليف المفصلة، فبدأ بذكر ما يحل وما يحرم من المطعومات فقال: ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾[المائدة:١][2].

فالجملة الأولى من الآية هي أصل السورة ومبناها . والفارق بين هذا النوع وسابقه أن الإجمال هو تضمن جملة الافتتاح للمعاني والأغراض التي تفصلها السورة فيما بعد: أما الكلي فهو قاعدة ومعنى ركيزة تلتف حوله الأغراض، فتستقر به دون أن يسيطر على نموها وتفصيلها، ويصور ذلك صدى الافتتاح في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ

(١) " التفسير الكبير " ٨/ ٣٠١،٣٠٢ .

(٢) " التفسير " ٤/ ٢٧٧ .

أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[المائدة:٦].

فالافتتاح وطد لميثاق بين الرب والعبد واثقهم به ابتداء فبين عهد العبودية وهو الوفاء بما أمر الله به والتزام فرائضه وعهد الربوبية من الله بإحسانه وعظيم إنعامه على العبد فيما يصلح دنياه من الطيبات والرزق، وما يصلح آخرته من بعث الرسل مبشرين ومنذرين، فجاء الأمر بإقامة الصلاة بعدما استقصى سبحانه «ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح .. وعند تمام هذا البيان كأنه يقول «وقد وفيت بعهد الربوبية في الدنيا من المنافع واللذات، فاشتغل أنت في الدنيا بعهد العبودية، ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء»[1].

ويقول أيضًا في قوله: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾: «ففيه أن الكلام يتعلق بما ذكر في أول السور ة إلى هنا، وذلك لأنه تعالى أنعم في أول السورة بإباحة الطيبات والمناكح، ثم إنه تعالى ذكر بعده كيفية فرض الوضوء، فكأنه قال: إنما ذكرت ذلك لتتم النعمة المذكورة أولًا وهي نعمة الدنيا، والنعمة المذكورة ثانيًا وهي نعمة الدين»[2].

وأيضًا في ذكر أهل الكتاب اختير منه ما يناسب الافتتاح فجاء الحديث عن تمردهم وعتوهم على ما عهد إليهم يقول في ذلك: «اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، هو متعلق بما افتتح الله به السورة، وهو قوله: ﴿ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾[3].

---

(١) " التفسير " ٤/ ٢٩٦ .

(٢) " التفسير " ٤/ ٣١٨ .

(٣) السابق ٤/ ٤٠٤ .

والرازي في تتبعه لنبع المعاني في وسط السورة وعلاقتها بالأصول التي بني عليها الافتتاح يلحظ حركة المعنى باتجاه الزيادة والنمو من عناصر المطلع، وطريقة توزيعه في أغراض السورة؛ لأن التفصيل يكمل تلك العناصر وينميها بالبناء على معانيها وتفريع مضامينها المكنونة في زوايا لغتها، فالتفريع يفتح جميع الخصوصيات البيانية للمبادئ فتأخذ مكوناته بأطراف الدلالة وتوزعها بين مقاطعها المتعددة كما في سورة «الأحقاف»، إذ جعل رأس الكلام فيها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

فالافتتاح «يدل على إثبات الإله لهذا العالم ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلًا رحيمًا بعباده، ناظرًا لهم محسنًا إليهم، ويدل على أن القيامة حق ... واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى إثبات كونه عادلًا رحيمًا، وعلى إثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع»[1].

فجميع ما في السورة من معانٍ تفريع وتوزيع للمعاني التي تضمنها نسق هذه الآية، فرد جميع المقاطع والأغراض عليها . فبدأ أولًا بأدلة التوحيد واختصاصه بالألوهية وفرع عليه إبطال مسلك المشركين في عبادتهم للأصنام، وهذا تضمنه قوله ابتداء ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف:٣] وراجع اختيار ﴿بِالْحَقِّ﴾ وموقعها في سياق إثبات الإلوهية وكيف بني عليها رد مذهب كفار مكة في عبادتهم للأصنام وتكذيبهم لهم في معتقداتهم . ثم بنى علي الألوهية إثبات النبوة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف:٣] «والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار - بقي هؤلاء معرضين عن هذه الدلائل»[2].

وبنى عليها أيضًا إثبات اليوم الآخر وذكر أحوال المعاد بقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف:٣] فهي تنبيه على صحة القول بالبعث والقيامة»[3].

---

(١) "التفسير" ١٠/ ٦٠٥ .

(٢) " التفسير " ١٠/٦ .

(٣) السابق نفسه .

ولخص الرازي ذلك البناء بقوله: «اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار، ثم فرع عليه فرعين: الأول: إبطال قول عبدة الأصنام، والثاني: إثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة، وأجاب عنها، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها، وبسبب أنهم كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلًا وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد ﷺ فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم، فكان ذلك تخويف لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوة محمد ﷺ، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد والنبوة، ثم ذكر عقيبها تقرير مسألة المعاد»[1].

وهذا التلخيص جمع فيه أعناق المعاني المتفرقة داخل السورة وسلك بها مسلكًا مؤتلفًا ثم رد دلالتها على صدر الكلام وأوله، وهذا نمط جيد في التحليل يراجع جميع الجزئيات والتفاريع في نهاية السورة ويرتد بها إلى أصولها في جملة البدء، فيحكم بذلك تصور بنية السورة وتنظيم مقاصدها .

ونبه أيضًا على التشابه في توزع معاني المطلع مع توزيعها في بناء القصص داخل السورة كما في سورة «هود» عليه السلام حيث جاء في مطلعها: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾[هود:١-٣].

فالجملة «مشتملة على التكليف من وجوه: الأول: أنه تعالى أمر بألا يعبد إلا الله .. والمرتبة الثانية من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾. والمرتبة الثالثة: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾»[2].

ثم جرت هذه التكاليف الثلاثة بنفس النسق الذي جاءت عليه ابتداء في ثنايا القصص

---

(١) "التفسير" ١٠/ ٢٩١.

(٢) "التفسير" ٦/ ٣١٤، ٣١٥.

الواردة وسط السورة، وجاءت على مسارها وتنظيمها فأمروا أولًا بتبليغ التوحيد ثم دعوتهم إلى الاستغفار ثم التوبة كما في قصة هود في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود:٥٠-٥٢].

علق عليها الرازي بقوله: «واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف . النوع الأول: أنه دعاهم إلى التوحيد ... النوع الثاني من التكاليف ... دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة»[1].

وجرت قصة صالح مع ثمود على ذلك الترتيب فـ «نظمها مثل النظم المذكور في قصة هود»[2].

❊❊❊❊

(١) "التفسير" ٦/ ٣٦٢، ٣٦٣.

(٢) "السابق" ٦/ ٣٦٧

المبحث الثاني

التناسب بين الخواتيم والمقاصد

وجملة الختام ينتهي إليها مراد المتكلم من كلامه، فتكتمل عندها المقاصد وتستقر الدلالة؛ لذلك كان التعويل عليها لتنظيم ما تشعث في الكلام من أغراض وما تفرق وسطها من سياقات أمرًا بالغ الأهمية اشتدت لأجله عناية الرازي بهذه الجملة فتتبع علائقها بجميع عناصر السورة وأصدائها في بواطن الكلام، وقد استند في تفسيرها على أصلين هما:

١- جملة الأغراض والمقاصد الكلية .

٢- جملة الافتتاح وتناسبها مع مكوناتها المعنوية واللفظية .

وفي هذا المبحث أفصل القول في طرائق الرازيِّ في رد جملة الختام إلى المقاصد الكلية، وقدمت الحديث عنها على ردها إلى جملة البدء؛ لأن التقاء الجملتين مداره على الأغراض والمعاني التي جرت وسط السورة، وأيضًا وضع الخاتمة في موقعها من المقاصد أولًا ثم ردُّها إلى جملة البدء يحرر نقاط الالتقاء ويجلوها، مما ييسر الكشف عن الوجه الجامع بين الجملتين والتنبيه على الزيادة في معاني الخاتمة وأصول هذه الزيادات وهذا النوع من المناسبة وإن جاءت فيه التنبيهات بكلمات معدودة إلا أن وراءها جهدًا جاهدًا وتأملا شريفًا وقف به طويلًا عند تتبع ما اندس فيها من آثار الأغراض؛ ليدل عليها وينبه على خبيئها، وجذر باب علاقة الخواتم بالمقاصد دراسة مناسبة الفاصلة القرآنية لسياقها وما قبلها من معانٍ، ولا يكاد يخلو مؤلف في الإعجاز من الإشارة إلى ثراء هذا الباب، وقد عني الإمام بالوقوف عنده وتحليل الفواصل باعتبار المعاني، وأفاد في بعضها من بعض أئمة التفسير نحو ما ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:٦٠]. وتعلقها بما قبلها وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج:٦٠].

فـ «فيه وجوه: أحدها: أن الله تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني، فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة، فكأنه سبحانه قال: إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها، فإني أنا

الذي أذنت لك فيه. وثانيها: أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغي لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين . وثالثها: أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده»[1].

وكذلك في فاصلة قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[النساء:٣٤].

فـ «ذكر هاتين الصفتين في هذا الموضع في غاية الحسن، وبيانه من وجوه: الأول: أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النسوان، والمعنى أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم، فالله سبحانه علي قاهر كبير قادر ينتصف لهن منكم ويستوفي حقهن منكم، فلا ينبغي أن تغتروا بكونكم أعلى يدًا منهن، وأكبر درجة منهن .

الثاني: لا تبغوا عليهن إذا أطعنكم لعلو أيديكم؛ فإن الله أعلى منكم وأكبر من كل شيء وهو متعالٍ عن أن يكلف إلا بالحق .

الثالث: أنه تعالى مع علوه وكبريائه لا يكلفكم إلا ما تطيقون فكذلك لا تكلفوهن محبتكم فإنهن لا يقدرن على ذلك .

الرابع: أنه مع علوه وكبريائه لا يؤاخذ العاصي إذا تاب، بل يغفر له، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فأنتم أولى بأن تقبلوا توبتها وتتركوا معاقبتها .

الخامس: أنه تعالى مع علوه وكبريائه اكتفى من العبد بالظواهر ولم يهتك السرائر، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة، وألا تقعوا في التفتيش عما في قلبها وضميرها من الحب والبغض»[2].

---

(١)" التفسير " الرازي ٨/ ٢٤٥ ، وينظر: " الكشاف " الزمخشري ٣/ ١٦٧ .

(٢) " التفسير " ٤/ ٧٣ .

فهو يلحظ ما أشار إليه ابن عطية من كونها تهديدًا للأزواج فالله «قَدْره فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد، فلا يستعمل أحد على امرأته فالله بالمرصاد»[1].

ويعم الفائدة فيجعلها متضمنة معنى التحذير والإعلام بعظم قدرة الله لينتهي كل مقتدر على من تحت يده حين يعلم أن الله مع علوه وكبريائه تعصونه ثم يتوب و يعفو فأنتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع، وساق عليها ما روي عن أن أبا مسعود الأنصاري لما رفع سوطه ليضرب غلامه، فبصر به- عليه الصلاة والسلام- فصاح به: «لله أقدر عليك منك عليه»[2] بينما ذكر ابن عطية الرواية وجعل موقع الفاصلة نظير موقعها في بيان الرسول ﷺ حيث قال: «وينظر هذا إلى حديث أبي مسعود ....»[3].

وفي مواضع كثيرة نبه على أسرار لم يذكرها من كان قبله كما في فاصلة «فصلت» في قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:١٢].

يقول فيها: «واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل، قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ والعزيز إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، وما أحسن هذه الخاتمة؛ لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط»[4].

فالفاصلة متعلقة بالمقصد الكلي مقررة له، وأحيانًا تتفرع على عناصر السورة وتتعلق بأكثر من جملة فتستوعب بهذا التوزيع جميع معاني السورة، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨].

---

(١) "المحرر" ٢/ ٤٨.

(٢) "الكشاف" ١/ ٥٠٧.

(٣) "المحرر" ٢/ ٤٨.

(٤) "التفسير" ٩/ ٥٥٠.

فـ «قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي اعلموا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات يجازيكم على ما يصدر منكم، وفيه دقيقة أخرى، وهي أنه تعالى لما أمر في هذه الآيات بالحكم على سبيل العدل وبأداء الأمانة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي إذا حكمت بالعدل فهو سميع لكل المسموعات يسمع ذلك الحكم، وإن أديت الأمانة فهو بصير لكل المبصرات، يبصر ذلك، ولا شك أن هذا أعظم أسباب الوعد للمطيع، وأعظم أسباب الوعيد للعاصي، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** وفيه دقيقة أخرى وهي أن كلما كان احتياج العبد أشد كانت عناية الله أكمل، والقضاة والولاة قد فوض الله إلى أحكامهم مصالح العباد، فكان الاهتمام بحكمهم وقضائهم أشد، فلما كان هذا الموضوع مخصوصًا بمزيد العناية لا جرم قال في الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فما أحسن هذه المقاطع الموافقة لهذه المطالع»[1].

فدرك وجه المناسبة بين الفاصلة والمعنى في حدود الجملة يشوبها غموض يتطلب معه تلطف للكشف عن ما أجملته من مضامين تحور إلى سياقها وتغذي بيانه، ويزداد الخفاء في جملة الختام ؛ لأنها تأتي في سياق معانٍ ومقاصد متنوعة يكون معه من العسير تعليقها بمعنى واحد دون غيره من المعاني.

ولم يخلُ تراث التفسير قبل الرازي من إشارات تغري بفتح هذا الباب واستقصائه في كل سورة، وقد أفاد الإمام من بعضها حيث ذكر كلامًا للقاضي في مناسبة خاتمة سورة الأنبياء لما جرى فيها من أغراض ومقاصد يقول: «قال القاضي: إنما ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾. «لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفًا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره ..»[2].

---

(١) "التفسير" ٤/ ١١١، ١١٢.

(٢) "التفسير" ٨/ ١٩٦.

وكذلك في خاتمة سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[إبراهيم:٥٢].

يقول فيها: «أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة، ثم اختلفوا فقيل: إن قوله: «هذا» إشارة إلى كل القرآن. وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السورة. وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ [إبراهيم:٤٢] إلى قوله: ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[إبراهيم:٥١]... هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة»[1].

فالإمام يقلب آراء العلماء في وجوه تعلق الخاتمة بسياقات مختلفة سواء في محيط السورة أو في النظم القرآني عامة، ثم كشف عن وجه ربط أغراض السورة بالموعظة وما فيه من إشعار بأن التذكير بهذه المواعظ هادٍ إلى التوحيد، فاسم الإشارة خصوصية أسلوبية حوت كل ما مضى من أغراض ومعانٍ ووجهتها تجاه المقصد الكلي للسورة فجعل منها وحدة متماسكة حتى أصبحت السورة مبتدأ وخبرًا، فكان الذي فتح الباب في علاقة الخواتيم بالمقاصد هو القرآن نفسه ؛ لأن استخدام الربط اللفظي لفت ظاهر إلى هذه العلاقة وإلحاح على اقتصاص موضع الإشارة وآثارها على المعاني السابقة.

وتوقف بعض العلماء عند دراسة موضوعات الخواتيم وتنوعها ما بين وعظ ونصيحة ووعيد وأمثال وغير ذلك دون بيان لمناسبة كل نوع للمقاصد والسياقات المكتنفة له، أو ترتيب موقعها باعتبار من الأغراض . فجميع من جاء بعده لم يتجاوز إطار الموضوع إلى موقعه، فهذا الزركشي يقول فيها: «وهي مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوق النفس إلى ما يذكر بعد....

(١) " التفسير " ٧/ ١١٤،١١٥ .

ولأنها بين أدعية ووصايا وفرائض ومواعظ وتحميد وتهليل، ووعد ووعيد إلى غير ذلك»[1].

وكذلك الطيبي عول في وجه حسنها وبلاغتها على ذلك يقول: «وجميع خواتيم السور في نهاية من الكمال ؛ لأنها بين أدعية ووصايا ومواعظ وتحميد ووعد ووعيد وتعظيم وتبجيل والله أعلم»[2].

بينما لم أجد للإمام عناية بتصنيف موضوعاتها ومعانيها، وإنما جملة الخواتيم عنده جملة تذليل وليست تأسيسًا فوظيفتها أشبه بجملة التذييل في عدم استقلالها بل هي تجري في محيط المعاني السابقة لها من ابتداء السورة إلى ما قبل هذه الجملة، وتمكنها في موقعها باعتبارات ترجع إلى ردها إلى معاني الوسط سواء كان معنى كليًا أو معاني هي صفوة ما تسعى السورة إلى تقريره وبيانه؛ لذلك يجاوز الوقوف على موضوعاتها إلى فتح وجه المناسبة بين معانيها ومقاصد السورة والبحث فيما بينها من وشائج ونسب، فيعزوها إلى ما يناسبها ويناسب دلالتها وفق ما سبقها من أغراض، فأراك به ما تحت لغة الخاتمة من علائق تروغ بالمعنى وتتعطف به عن ما قبله من جمل لتصلها بعموم المقاصد، مما يكسب عناصرها فاعلية ما كانت لتكون في الجملة بمفردها، ولكن تضافرها مع السياقات وترابطها المنسجم داخل هذا الكل أضاف إليها معاني، وأضاف إلى المقاصد والأغراض معاني أخرى.

وشاهد ذلك موضوع النصيحة والوعظ وتنوعها باعتبار من الأغراض كما في سورة «لقمان» في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٣،٣٤].

---

(١) " البرهان " ، ١/ ٢٣٣ ، وينظر " معترك الأقران " السيوطي ١/ ٥٨ .

(٢) " التبيان " ٤٦٦ .

فـ «لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى؛ لأنه تعالى لما كان واحدًا أوجب التقوى البالغة، فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد، وذلك لأن الملك إذا كان واحدًا و يعهد منه أنه لا يعلم شيئًا ولا يستعرض عباده، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف، ثم أكده بقوله:﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ «يقول بعض المفسرين: إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره، وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك؛ لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره، ولأن يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول: لما قال الله: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾وذكر أنه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾كأن قائلًا قال: فمتى يكون هذا اليوم، فأجيب بأن هذا العلم ما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارًا على البعث: أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها ... وثانيهما: الخلق ابتداء ... فقال ههنا: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾القمان: ٣٤]. إشارة إلى أن الساعة وإن كانت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ... »[1].

وفي سورة «ص»يتخذ النصح والإرشاد مسلكًا مختلفًا وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾

[ص:٨٦-٨٨].

ووجه تمكنها مع مقاصد السورة ما ذكره الإمام: «اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقًا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين، ثم قال عند الختم: هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظروا في حال الداعي، وفي

(١) " التفسير " ٩/ ١٣٢ .

حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل، أما الداعي وهو أنا، فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرًا ومالًا، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبتة، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيدًا عن الدنيا عديم الرغبة فيها، وأما كيفية الدعوة فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالتها، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص:٨٧] ولما بين هذه المقدمات قال:﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨] والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو مخطئين وذكر هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب»[1].

وإذا وقف عند معاني الخاتمة أطلعك على ما تكتنزه من بيان وأسرار دون تعرض للمعاني العامة وإنما يثير إيجازها وإجمالها ويحرك لغتها التفصيل كما في سورة «الصافات» في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

قال فيها: «إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة: فأولها معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع: أحدها: تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية وهو لفظة سبحان، وثانيها: وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة والرحمة، والعزة

(١) "التفسير" ٩/ ٤١٦، ٤١٧.

إشارة على كمال القدرة، وثالثها: كونه منزهًا عن الإلهية عن الشرك والنظير، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث؛ لأن الألف واللام في قوله:﴿الْعِزَّةِ﴾ تفيد الاستغراق، وإذا كان الكل مُلْكًا له ومِلْكًا لم يبق لغيره شيء، فثبت أن قوله ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم.

والمهم الثاني: من مهمات العاقل يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية، واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولابد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم، وهادٍ يهديهم، وما ذلك إلا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم.

والمهم الثالث: من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت، فنبه على هذا الحرف بقوله ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبين بهذا كونه منعمًا وظاهر كونه غنيًّا عن العالمين، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبهًا على سلامة الحال بعد الموت، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب»[1].

بينما ذكر شيخه الواحدي أن: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ البنات والنساء، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على هلاك المشركين ونصرة الأنبياء والأولياء»[2].

---

(١) "التفسير" ٩/ ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) "الوسيط" ٣/ ٥٣٥.

وأجراها على ذلك الزمخشري وردها إلى المقصد الكلي للسورة؛ لأنها «اشتملت على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المرسلين ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما قيض من حسن العاقبة»[1]. فلما قرر من قبله موقعها في سياقات السورة وتناسبها مع مقاطعها وإحالة كل جملة إلى ما يلائمها من أغراض اكتفى الرازي بما ذكروه في مجراها داخل الأغراض، وبنى عليه ما وراء تلك الجمل المعدودة من مطالب عالية وأصول شاملة لجميع ما يتطلبه الإنسان من معارف تصلح له معاشه ومعاده، وكل منشأ الخلل عند المشركين جاء من الخطأ في فهم هذه الأصول الثلاثة.

والرازي في دراسته للخاتمة يتفقد الجمل التي تشكل مقطعًا ينقطع عنده الكلام وتستقر عنده الدلالة، فليست كل جملة تصلح أن تكون خاتمة للسورة، بل هناك خصوصيات وشيات لجملة المنقطع تميزها عن غيرها من المقاطع، فتجده أحيانًا يقتصر من الآية ذات الجمل المتعددة على فاصلتها ويتجاوز بالفاصلة حدود موقعها والمسار السابق لها إلى سياقات أشمل وأعم من سياقها فيجريها على المعنى الكلي للسورة، مثل نهاية سورة «الأنفال» وهي قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال:٧٥].

فيجري صدر الجملة على ما قبلها ثم ينعطف بـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ أي عجزها وفاصلتها إلى مقاصد السورة ويجعلها خاتمة للسورة كلها، يقول في ذلك:«ثم قال في ختام السورة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ والمراد أن هذه الأحكام التي ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح، وليس فيها شيء من العبث والباطل، لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب ونظيره أن الملائكة لما قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] قال مجيبًا لهم: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] يعني لما علمتم كوني عالمًا بكل المعلومات فاعلموا أن حكمي بكوني منزهًا عن الغلط كذا ههنا والله أعلم»[2].

---

(١) "الكشاف" ٤/ ٦٩.

(٢) "التفسير" ٥/ ٢٠.

وراجع استدلاله بموقع ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من الآية التي وردت في سياقها وكيف هداه انتظام الفاصلة مع ما قبلها من الاعتراضات الواردة من الملائكة على اتخاذه سبحانه خلفاء في الأرض من دونهم وهم يسبحون بحمده ويقدسونه، مع ما تتضمنه الآيات من تخوفهم من مغبة ذلك الاصطفاء ألا يليق به من يستخلفهم، فيتخذون من الأرض ساحة فساد وسفك للدماء. فشابه سياق سورة «الأنفال» سياق الآية، لما في السورة من كراهية المؤمنين وترددهم عند الأمر بقتال المشركين؛ لكونهم قلة مستضعفين خوفًا على مستقبل هذا الدين لعدم تكافؤ القوى وقد بينت السورة تلك المواقف كما في: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ * يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال:٥،٦].

وموقف آخر في قوله: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:٧].

فناسب هذه المعاني تقرير صفة العلم والحكمة مما يزيل عن النفس التردد وأسباب الكراهية فتنقاد النفوس للأحكام والفرائض وتنصرف عن التوقع وقراءة المستقبل فتفوض الأمر لله وعلمه.

والنص السابق نشر لما انطوى وأجمل تحت عبارة ابن عطية في بلاغة اختيار وصف العليم وأنها «مناسبة لنفوذ هذه الأحكام»[1].

وأيضًا خاتمة سورة «الشعراء» ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧]. فالخاتمة عنده فاصلة الآية، يقول فيها: «فأما قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ فالذي عندي -والله أعلم- أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن

(١) "المحرر" ٢ / ٥٥٧.

قلب رسول الله ﷺ من الدلائل العقلية، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمدًا ﷺ تارة بالكاهن وتارة بالشاعر، ثم إنه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولًا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيًا ختم السورة بهذا التهديد العظيم، يعني أن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، والتأمل في هذه البينات فإنهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون. وقال الجمهور: المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء، والأول أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها والله أعلم»[1].

فالرازي لا يفسرها في حيز ما قبلها وإنما يعديها إلى مجالات أوسع، وقد هيأ لذلك العموم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ التي أحالت على جميع أنواع التعدي وتجاوز الحد في الطغيان بالانصراف عن التدبر في الدلائل والبراهين الصادقة القاطعة بنبوته عليه السلام وتلبيس منهج الحق وتفريقه في مفترقات مختلفة بين الكهانة والشعر، فجاء التهديد متمكنًا في سياق الإنكار حيث أتى به في صورة مقابلة لما هم عليه من التعالي والإعراض، فقابل إنكارهم لما ورد عليهم من الحق في الدنيا بعلمهم القاطع بما سيئول إليه مصيرهم يوم القيامة.

ويلاحظ أنه أعرض عن قول الجمهور وإن عرض له؛ لكونه يحتجز الدلالة ويضرب عليها أسوارًا تمنعها من الانطلاق في الأفق الممتد للسورة، بينما دلالة العموم تزيد في معنى التهديد لذلك وصفه بالعظيم لمكانه وموقعه من مقاصد السورة ومعانيها المتعددة، وهذا ما جرى عليه الزمخشري قبله حيث فسر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على إطلاقه[2] ولم يقيده بما قبله.

وقد لفت أيضًا إلى دقائق اختيار نوع الخاتمة باعتبار المقاصد و كيفية انتظامها مع غيرها من الفصول وأن هذا الترتيب وفق اعتبارات تبني عليها مقاصد السورة، وتكتمل حلقاتها فيحكم موقعها بناء الكلام، وذلك ما نبه إليه في تفسيره لخاتمة سورة «غافر» وتنزيله آخر

(١) "التفسير الكبير" ٨/ ٥٣٨.

(٢) "الكشاف" ٢/ ٣٤٥.

الكلام باعتبار ما جرى عليه بناء السورة وترتب عليه نظمها، يقول فيها:«اعلم أنه تعالى راعى ترتيبًا لطيفًا في آخر هذه السورة وذلك أنه ذكر فصلًا في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ثم أردفه بفصل التهديد والوعيد، وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[غافر:٨٢]. يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين والمتمردين ليست إلا الهلاك والبوار»[1].

وتأمل كيف عاد بالخاتمة إلى فصول السورة وخرج بدلالة التهديد في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر:٨٢]. إلى موقعها في بناء الكلام وكشف بها عن الغموض في موقف هؤلاء العصاه من الحق لما جاءهم، وأن السبب في جدالهم وعزوفهم هو تصادم الحق مع ما في نفوسهم من الطلب للرياسة والتقدم في أمور الدنيا، وأن إقرارهم بالألوهية لله يسلب السلطة التي مكنتهم من استعباد الناس واسترقاقهم فكان ذلك مانعًا لهم من الإذعان والتسليم، فالسبب ليس في الدلائل واشتباهها عليهم وإنما دواخلهم الموبوءة.

وخاتمة سورة «مريم» وإن تقاربت مع «غافر» إلا أنه يجعلها من قبيل الموعظة والإنذار يقول في ذلك:«ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم:٩٨]. لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضًا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا

(١) "التفسير الكبير" ٩/ ٥٣٤،٥٣٥.

فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب ثم أكد تعالى في ذلك فقال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ لأن الرسول ﷺ إذا لم يحس منهم أحدًا برؤية وإدراك وجدان ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾... دل ذلك على انقراضهم بالكلية، الأقرب في قوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أن المراد به الانقراض بالموت وإن كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل في الدنيا والله أعلم بالصواب»[1].

ومرد ذلك إلى المقاصد لأن سورة «مريم» جرى فيها التذكير بالنعم، فنزع به السياق إلى ملاحظة عناصر التخفيف في الخطاب، وهي إشراك الرسول ﷺ معهم في الخطاب بعد أن كان الكلام ابتداء مع كفار قريش فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ ثم انتقل إلى الرسول ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم﴾ فالتذكير ليس مختصًا بالكفار وإنما لكلا الفريقين، ثم اختيار لتفسير قوله ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أنه ليس المراد به العقاب والعذاب وإنما الانقراض بالموت وهذه سنة جارية على المتقين وأهل اللدد.

وكثير من الخواتيم تتقارب في موضوعاتها أو تراكيبها، لكن مع هذا التقارب نجد تنوعًا في تفسيره إياها تبعًا لاعتبارات سياقية تغير مدلولاتها كما في انتهاء بعض السور بالحمد وهي «الصافات» و«الزمر» و«الجاثية».

وقد ذكر الرازي أن حرف الحمد يدل على سلامة الحال بعد الموت وجاء على هذا التأويل في سورتي «الصافات» و«الزمر»، يقول في «الصافات»: «فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢] وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبين بهذا كونه منعمًا وظاهرًا كونه غنيًّا عن العالمين، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبهًا على سلامة الحال بعد الموت»[2].

وخاتمة سورة «الزمر» مساقها حكاية أحوال القيامة وموقف العرض وما يحفل به من

(١) "التفسير" ٧/ ٥٦٨.

(٢) "التفسير الكبير" ٩/ ٤٦٤.

خوف ورجاء واستشراف لرحمته – سبحانه – ثم يصير كل بحسب عمله: من كذب بالرسل أرداه عمله جهنم، والصادقون وفاهم وعدهم ربهم فحمدوا وصرح بذلك بقوله: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر:٧٤]. ثم أبهم الحمد في ختام السورة لخصوصية بيانية زائدة على سلامة الحال بعد الموت، فقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر:٧٥].

يقول الإمام في هذا: «وقوله: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عبارة عن الإقرار بكونه موصوفًا بصفات الإلهية وهي صفات الإكرام،... وفي قوله: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ دقيقة أخرى وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس:١٠]»[(١)].

وأما سورة «الجاثية» وإن جاءت في سياق مشابه حيث سيقت في موقف العرض وتفصيل أحوال القيامة، فمساقها قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٧،٢٨].

إلا أن الرازي ردّ دلالتها إلى المعنى الكلي للسورة فجعلها مترتبة على اكتمال الأدلة والبراهين المؤكدة على كونه متفردًا بالألوهية والتي تصدقها مظاهر الخلق وآياته في الآفاق أرضًا وسماء ثم الوعيد الشديد لمن صدف عن آياته «ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بالتحميد لله تعالى، فقال: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٦]. أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السماوات والأرض، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح، والذوات والصفات، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين»[(٢)].

---

(١) "التفسير" ٩/ ٤٨١.

(٢) "التفسير" ٩/ ٦٨٢،٦٨٣.

فحمل ظاهر الخبر في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على معنى الإلزام وجعل الأصل فيه الأمر باعتبار موقعه في سياق البراهين السابقة، فكأنه أمام قوة هذه الحجة لا يتسنى للعقل إلا أن يسلم بها وينزع عنه رداء الكبر والمعاندة فيوجب لهذه الكينونة الحمد والثناء دون سواه.

وأظن أن الذي حمله على ردّه إلى المقصد الكلي هو إشباع الوصف في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بينما بنى الوصف على الإيجاز في السورتين السابقتين، فكان لذلك شأن في توجيه الدلالة وتغيير مجراها إلى ما يوجب المناسبة بين النظم والمعنى.

وأيضًا نجد التنوع في تفسير دلالة ختام بعض السور بتعظيم أمر القرآن فلا يرده إلى معنى واحد وإنما يستنفر معانيها بالأحوال السياقية المكتنفة لدلالتها أو يفرع عنها معاني تثري المقاصد الكلية وتقويها، يقول في ختام سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]. «اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواع الدلائل والبيانات وشرح أقاصيص الأولين نبه على كمال حال القرآن»[1]

وكذلك خاتمة «الحاقة» جاءت بتعظيم القرآن في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠].

ولكنه مرتب على معنى آخر غير ما جاءت به الكهف بـ «أنه تعالى لما أقام الدلالة على إمكان القيامة ثم على وقوعها، ثم ذكر أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ختم الكلام بتعظيم القرآن، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾»[2].

فالسورتان وإن جمع خاتمتها غرض كلي جامع وهو التعظيم لشأن القرآن إلا أن الإمام تعداه إلى التنبيه على الخصوصيات التي تشربتها كل جملة من المقاصد التي ترتبت عليها فوجهت دلالتها وجهة مباينة، فـ«الكهف» لما كانت ردًّا لما أثاره المبطلون من تساؤلات دافعها التشكيك في نبوته ﷺ خرج ذلك بالتعظيم إلى التنبيه على إعجاز بيانه وشرف برهانه

(١) "التفسير" ٧/ ٥٣.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٦٣٢.

وأن هذه البراعة في إيراد البيانات وكشف الشبهات وتفصيل الدلائل بالقصص ليست في مُنَة بشر، وإنما هي تنزيل من لدن حكيم عليم.

بينما نجدها في سورة «الحاقة» تأتي بعد سياق إقامة الدلائل على وقوع القيامة وذكر ما وراءها من وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء وهو أمر غيبي تنزع النفس عن التصديق به فجاء تعظيم أمر القرآن بزيادة تأكيد وتقوية، وأن ما يبصرونه من صدق إعجازه برهان وشاهد يستدل به على حقيقة ذلك اليوم.

وقد حاولت أن أتبين الفروق في رده للخواتيم على المقاصد وهل كان يوردها موردًا واحدًا، أم أن هناك تنوعًا واختلافًا بحسب ما تكتنزه جملة الخاتمة من هيئات لمعان جرت وسط السورة فتارة تجده يردها إلى جميع المقاصد الأصلية، وأحيانًا تتضمن فروع المعاني وتحتمل الرد إليها، وتارة ينعطف بها إلى بعض العناصر دون بعض فهو في بحث دءوب عن الزوايا التي تستكن فيها عناصر الوسط في لغة الخواتيم ويمكن تصنيف طريقته في ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

وهذا النوع يغرسه الرازي في قلب السورة ويعلقه بجميع عناصرها وأغراضها فيسدي به لحمة النظم، وعنده تبلغ المعاني غاية الظهور مع اكتمال النسق،و قد عول – غالبًا – في دراسته لآثار المقاصد في جملة الخاتمة على اللغة وما ينطبع عليها من سمات وهيئات للمعاني التي قررتها السورة، فينبه عليها بكلمات معدودة يجمل بها ما سبق مع تثبيته وتقويته، وقد أثار بهذا المسلك دفائن كانت وادعة بين الكلمات فكان ردها إلى مكونات السورة ينمي مدلولاتها أو يبتعد بها بمسافات عن مجراها إلى محيط أوسع وأعم، ويصور ذلك تفسيره لنهاية سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال فيها:«واعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواعًا كثيرة من علوم الأصول

والفروع، أما الأصول ففيها يتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد،وأما الفروع ففيها يتعلق بالتكاليف والأحكام نحو الحج والجهاد وغيرها، ختم هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان: منها ما يتعلق به وحده، ومنها ما يكون مشتركًا بينه وبين غيره، أما القسم الأول فلابد فيه من الصبر وأما القسم الثاني فلابد فيه من المصابرة.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وتمام التحقيق فيه أن الأفعال مصدرها هو القوي، فهو تعالى أمر بالصبر والمصابرة، وذلك عبارة عن الإتيان بالأفعال الحسنة، والاحتراز عن الأفعال الذميمة، وذلك هو المراد بالمرابطة، ثم ذكر ما به يحصل دفع هذه القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات، وذلك هو تقوى الله، ثم ذكر ما لأجله وجب ترجيح تقوى الله على سائر القوى والأخلاق وهو الفلاح، فظهر أن هذه الآية التي هي خاتمة لهذه السورة مشتملة على كنوز الحكم والأسرار الروحانية، وأنها على اختصارها كالمتمم لكل ما تقدم ذكره في هذه السورة من علوم الأصول والفروع، فهذا ما عندي فيه.

ولنذكر ما قاله المفسرون: قال الحسن: اصبروا على دينكم ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا على عدوكم ولا تفشلوا بسبب وقوع الهزيمة يوم أحد. وقال الفراء: اصبروا مع نبيكم، وصابروا عدوكم فلا ينبغي أن يكون أصبر منكم. وقال الأصم: لما كثرت تكاليف الله في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولما كثر ترغيب الله تعالى في الجهاد في هذه السورة أمرهم بمصابرة الأعداء»[1].

فالجملة تركيز موجز لأصول المعاني وفروعها، فكل كلمة من كلماتها تحيل إلى جملة أغراض امتدت في مساحات مختلفة في وسط السورة، فهي خمس كلمات رتبت ترتيبًا بديعًا نظمت به معاقد وأخذت بكل منها بطرف فـ«اصبروا» ونبهت على الأصول والفروع التي يختص الفرد بالقيام بها وهي حقوق بينه وبين الله يندرج تحته أنواع: أولها: أن يصبر على مشقة

(١) "التفسير" ٣/ ٤٧٤.

النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين. وثانيها: أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات. وثالثها: أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات، ورابعًا: الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها»[1].

و﴿وَصَابِرُواْ﴾ تنبه على الحقوق الواقعة بينه وبين الغير «ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،.. ويدخل فيه الجهاد، فإنه تعريض النفس للهلاك، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين وحل شكوكهم والجواب عن شبههم»[2].

وقوله:﴿وَرَابِطُواْ﴾ هي التي يتحقق بها الأمران السابقان، فمن لم يكن مشتغلًا طول عمره بمجاهدة الأخلاق الذميمة وقهرها لا يمكنه الإتيان بالصبر والمصابرة[3].

ثم رتب عليها باعثها وداعيها «وهو تقوى الله لنيل الفلاح والنجاح»[4].

وإذا راجعت السورة فلن تجد معنى يندُّ عن موقعه في هذه الكلمات وقد أحسن الإمام حينما جعلها مستوعبة لجميع المقاصد ولم يخص بها معنى دون آخر لذلك عرض أقوال المفسرين بعد أن فتح الباب لمعرفة الكيفية التي تستوعب بها الجملة مقاصد السورة بأكملها وأقوال المفسرين نبهت على جانب من العلائق بينها وبين بعض المقاصد وخاصة ردها إلى غزوة أحد وهذا داخل في جملة الأغراض التي ذكرها الرازي.

وأحيانًا يستحضر سياقات السورة وأغراضها ثم يضع الخاتمة في قلب هذه الأغراض ويصلها بها لتضيف إليها بعدًا آخر كما في خاتمة سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

---

(١) "التفسير" ٣/ ٤٧٣.

(٢) السابق نفسه.

(٣) "التفسير" ٣/ ٤٧٣ بتصرف.

(٤) السابق ٣ / ٣٧٤.

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما علم رسوله أنواع دلائل التوحيد، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد وبالغ في تقرير إثبات التوحيد، والنافين للقضاء والقدر، ورد على أهل الجاهلية في أباطيلهم، أمره أن يختم الكلام بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:١٦١]. وذلك يدل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله»[١].

فكأنه لما بالغ في إظهار الدلائل وتقرير أدلة التوحيد والقضاء والقدر ورد الأباطيل بالبراهين الكاشفة، جاءت هذه الآية لتدفع توهم من ظن أن الأدلة وحدها تكفي في حصول الهداية، وآخر السورة يبين المنهج القويم المقابل لطرق أهل الضلال والزيغ التي وصفتها الآيات وسط السورة واستحضرت منهج إبراهيم في قوله ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١]. قال فيها الرازي: «المقصود منه الرد على المشركين»[٢].

ثم أتمت تقرير التوحيد بنفي الإشراك والأمر بالإخلاص التام في صرف سائر العبادات لله في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]. وقرر القضاء والقدر بقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣][٣].

وكذلك سورة «يونس» وخاتمتها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

[يونس: ١٠٨، ١٠٩].

قال فيها: «واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدًّا بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية،... ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

---

(١) التفسير ٥/ ١٩٠.

(٢) التفسير ٥/ ١٩١.

(٣) السابق نفسه.

والمعنى أنه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع المكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين»[1].

ورحم الله الإمام فقد حرمنا ضيق صدره بمصابه في ولده من تفصيل علو وشرف هذه الخاتمة، فقد ذكر ذلك في نهاية تفسيره للسورة بقوله: «ختمت تفسير هذه السورة ... وكنت ضيق الصدر كثير الحزن[2] بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنوار المغفرة والرحمة»[3].

وإن كان ما نبه عليه فيه الكثير، فالسورة مقصدها الكلي ومدار آياتها على إثبات نبوة محمد ﷺ والرد على شبهات المنكرين لها وهذا ما ذكره في تفسيره للآية التاسعة والتسعين حيث قال: «اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها»[4].

فهناك معانٍ متفرقة ودلائل متعددة جرت في وسط السورة منها ما هو أصل وبعضها فروع تتشعب وتبنى على المقصد الكلي، فالتوحيد والحشر معانٍ فرعية انشقت وانشبعت ولم تستقل بدلالتها وإنما يحكم السياق الأكبر قبضته على مسارها فيوجه دلالتها بمقدار تجليه أو التدليل على معنى دون أن تكون هي مدار المعنى وإنما تدور هي في فلك أشمل، وحينما يرد الرازي ختام السورة إلى جميع المعاني الأصلية والفرعية ولا يقصر دلالتها على السياق الكلي المسيطر على حركة هذه الفروع . هنا ينبغي التوقف عند لغة الخاتمة لمعرفة القناة التي شقت مجرى لجميع المعاني السابقة لتصب فيها، وكيف احتوت بلفظة واحدة ما تفرق وتفرع داخل

---

(١) "التفسير" ٦/ ٣١٠،٣١١ .

(٢) علق عليه المشرف: لقد ذكر الرازي هذا ليدلنا على معنى جليل وهو أن كتابة العلم للأجيال القادمة لا يقطعها حدث وإن جلّ فليس أشق على الوالد من موت الولد . اللهم اغفر له وارحمه.

(٣) "التفسير" ٦/ ٣١١ .

(٤) "التفسير" ٦/ ٣٠٤ .

الوسط، فكلمة «الحق» بعمومها استحضرت جميع الدلائل المذكورة من القول الفصل في أمر النبوة ودلائل التوحيد والمعاد وما ذيل به آخرها من أمره ﷺ بإظهار دينه ومباينة طريق المشركين بعد أن بلغت الدلائل منتهى غاياتها[1].

فالخاتمة لم يردها على ما قبلها وإنما أجراها على جميع الدلائل التي قررتها الآيات ثم عاد بخاتمة الخاتمة على المقصد الأصلي وهو تقرير دلائل النبوة والرد على شبهات القوم فيها فقال: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ وذلك بتخصيصه بالذكر بعد أن جرى في سياق عموم الحق فختمت الخاتمة بتقرير المعنى الذي بدأت به السورة وأكدت اختصاصه بالنبوة بعد أن شكك فيها المشركون وظنوه أمرًا عجبًا.

ومما يبرز عنايته بأواصر النسب بين جملة الختام والمقاصد مخالفته للزمخشري في تفسير آخر «النمل». وإلحاحه على أن الكلمات داخل سياج هذه الجملة ليس وليد دلالة مفردة وإنما تحكمه أصول وأغراض كبرى يرتد إليها، ولا تتشكل دلالته بصورة مكتملة إلا بمعانقته لأصوله، ويتبين ذلك الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٩١-٩٣].

قال فيها الزمخشري: «أمر رسوله بأن يقول ﴿ أُمِرْتُ ﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكًا كما فعله قريش، وأن أكون من الحنفاء والثابتين على ملة الإسلام .. والبلدة: مكة حرسها الله تعالى، اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه ... وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، والأعلى أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ... وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها، وفي ذلك إشارة إلى أن ملكًا ملك مثل هذه البلدة عظيم

(١) ينظر: " التفسير " ٦/ ٣٠٨.

الشأن وقد ملكها وملك إليها كل شيء»[1] .

وقال فيها الرازي: «اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب، وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال: قل يا محمد: إني أمرت بأشياء: الأول: أني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكًا، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدًا بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم إن لم تفد كلم بالتوحيد، فقد أفادت لي ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها، فإني مصر عليها غير مرتاب فيها، ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين الأول: أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد ... وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالًا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ...

وثانيهما: وصف الله تعالى بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾.وهذا إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقًا لجميع النعم فأجمل ههنا تلك المفصلات .

الثاني: أمر بأن يكون من المسلمين . الثالث: أمر بأن يتلو القرآن عليهم. .. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي: التوحيد والحشر والنبوة ... ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فلا علي وما أنا إلا رسول منذر ثم إنه سبحانه ختم هذه السورة بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾القاهرة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾لكن حين لا ينفعكم الإيمان ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾لأنه من وراء جزاء العاملين»[2] .

فالزمخشري يحلل العناصر باعتبار موقعها في حدود الجملة، بينما يتجاوز الرازي تبعية الألفاظ السابقة لها ويمتد بها إلى الأصول والأغراض ويجعل منها إشارات وإيماءات تحيل

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٩، ٣٩٠ .

(٢) "التفسير" ٨/ ٥٧٥، ٥٧٦ .

على سياقات لتأكيدها وتقويتها، فقوله: ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ حللها الزمخشري باعتبار جريان العام بعد الخاص لمزيد فضل البلد الحرام وكأن دخول العموم في ربوبيته وملكوته لكل شيء تابع لدخول مكة تحتها.

أما الرازي فلا يلتفت إلى دلالة العموم بعد الخصوص بل أحال دلالة ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ إلى سياقات التوحيد وأدلته فيجمع أطرافها في جملة واحدة «فأجمل ههنا تلك المفصلات».

وأيضًا أشار إلى ما داخل قوله: ﴿ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ من براهين النبوة فاختصاصها بالفضل؛ لكونها مهبط وحيه وأشرف رسالته، و ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ هو التبليغ والإنذار الذي هو مناط النبوة وبرهان صدق دعواه، وأيضًا استحضرت هذه الجملة جميع ما يقرره القرآن من أصول .

❊❊❊❊

الضرب الثاني

وفي هذا النوع تنتخب الخاتمة معنى من المعاني التي جرت في ثنايا السورة، وغالبًا ما يكون أبرز ما تضمنته وحشدت بيانها لتأكيده وتقريره، فتأتي جملة الخاتمة لتميزه بعد أن كان مختلطًا بغيره من الأغراض كما في سورة «يس» حيث جاء قوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس:٨٣]ختامًا لآياتها التي توزعتها أصول ثلاثة هي: تقرير الرسالة والحشر والتوحيد وما يتخللها من الاستدلال على ثوابه وعقابه . وبعد أن قررت الأصول استرجعت الخاتمة معنى الحشر وقرنته بالتوحيد لتنبه على مزيد العناية به وكأنه قطب السورة والعمود الذي عليه استقرار آياتها .

يقول الإمام في ذلك: «لما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة، قال تعالى وتنزه عن الشريك ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكًا، وقالوا بأن الإعادة لا تكون، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ردًّا عليهم في الأمرين... ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فابتداؤها بيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[يس:٣]. ودليلها ما قدمه عليها بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[يس:٢]. وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحشر وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه»[1].

وعلل اقتران التوحيد فيها بالحشر بما ذكره الغزالي، ولأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه[2] .

وكذلك سورة «الرعد» جاءت خاتمتها تتميمًا لما تضمنته السورة من ذكر النبوة والاستدلال عليها، فقررت ذلك المعنى بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا

(١) "التفسير" ٩/ ٣١١، ٣١٢.

(٢) السابق ٩/ ٣١١.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الرعد:٤٣].

فاحتج عليهم تعالى بأمرين: الأول: شهادة الله على نبوته، والثاني: المعجزة فإنه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولًا من عند الله تعالى، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة.[١]

وخاتمة «الحج» تأتي مؤكدة للغرض الأخير فالسورة موزعة بين ثلاثة فصول: فصل في الإلهيات، وثانٍ في النبوات، وثالث في التشريع، ذكر ذلك في قوله: «اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع ...»[٢].

وختمها بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الحج:٧٨]. وهي: «شرح يجري مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ويجب صرفها إلى المفروضات؛ لأنها هي المعهودة»[٣].

❊❊❊❊

(١) "التفسير" ٧/ ٥٤.

(٢) السابق ٨/ ٢٥٣.

(٣) السابق ٨/ ٢٥٧.

الضرب الثالث

وفي هذا النوع تأتي الخاتمة لتضيف بعدًا آخر للمقاصد والأغراض وتزيد في الفائدة كما في سورة التوبة ختمها بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٨، ١٢٩].

وبيانها ما ذكره الإمام: «إنه تعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يبلغ في هذه إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم، وأيضًا فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان، فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة بكل خير، ثم قال للرسول عليه السلام: فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولا تلتف إليهم وعول على الله وارجع في جميع أمورك إلى الله ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت في غاية الحسن والكمال.

... ثم ذكر تساؤلًا حول موقع الفاصلة، قال فيه: «لما قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾فهذا النسق يوجب أن يقال: رءوف رحيم بالمؤمنين، فلم ترك هذا النسق وقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؟ الجواب: أن قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين، فأما الكافرون فليس له عليهم رأفة ورحمة، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ كأنه يقول: إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين،

وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط، فلهذه الدقيقة عدل على ذلك النسق»[1].

فالسورة لما كثر فيها الإلزام بتكاليف شاقة عسيرة على النفس جاءت الخاتمة ببيان عظيم ما أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم رسولًا من أنفسهم، فكأن هذا الاصطفاء ليس لشخصه ﷺ فحسب وإنما هو اصطفاء لكم وتشريف لكم أنتم فتقرير صدق نبوته عليه السلام في سياق التكاليف السابقة يهيئ النفوس لتحمل مشقة تلك التكاليف؛ لأن معرفتهم بكونه رسولًا حقًّا من عند الله موجب للقبول.

ثم عادت الفاصلة إلى مقاصد السورة لتستحضر أجواء التغليظ والترهيب وجاء ذلك بمسلك بياني هو التقديم المفيد للحصر في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. فاكتملت بها معاني الوعيد في داخل السورة، ثم أفادت فائدة أخرى وهي دفع توهم أن يكون المنهج الرباني منهج قهر وعنت على أوليائه، وأن ما فيه من تأديبات وإلزامات، وإن كانت شاقة إلا أن فرضها رأفة بهم ورحمة لهم، فـ «صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان».

❊❊❊❊

(١) "التفسير" ٦/ ١٧٧-١٧٩.

المبحث الثالث

التناسب بين الفواتيح والخواتيم

وهذا النوع من المناسبة العناية به أظهر في التراث النقدي والبلاغي، فقد صرحوا كثيرًا بضرورة الملاءمة والمؤامة بين أطراف الكلام صدرًا وعجزًا، وتحقيق التوازن في تفقد بناء جملتي الأول والآخر فلا ينظر في إتقان جملة البدء وحسن انتظامها بمعزل عن حسن الانتظام في جملة الختام، بل مناط البلاغة هو التلاؤم بين الأول والآخر واشتباههما في الحسن والمزية لفظًا ومعنى ونسجًا، وأشار إلى ذلك الجاحظ في قوله: «ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده»[1] . ثم جاء نص ابن طباطبا ليبين نمط التصفح والتفقد فوجهه إلى «أن تكون ا لقصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجًا وحسنًا وفصاحة وجزالة ودقة معانٍ وصواب تأليف»[2] .

أي الاستواء التام فلا تنبو عبارة في ألفاظها أو جرسها عن عبارة أخرى اقترنت بها أو ضمت إليها، فالكلمة النابية أو الجرس الأجش لا يعفي على حسن الجملة التي جرى فيها وإنما يتداعى أثرهما على ما تجاور معها من جمل فيطفئ إشعاعه الفصاحة المتوقدة في قلب الكلام، وإذا كان هذا على مستوى الكلمة فرعاية ذمام المعنى ومنعة جانبه بتحقيق التناسب والاشتباه مطلب بياني ملح يمنع من التناقض والاختلال في حركة العقل وينساب به في مسار واحد وإن تشعبت جوانبه، لذلك جعله الجاحظ من حقوق المعنى بل هو عنده من الأصول التي لا تغني الإصابة في غيرها من أبواب الصناعة عن الإصابة فيها، يقول: «ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا وتلك الحال له وفقًا، ويكون الاسم له لا فاضلًا ولا مفضولًا، ولا مقصرًا، ولامشتركًا، ولا مضمنًا، ويكون مع ذلك ذاكرًا لما عقد عليه أول كلامه»[3] .

---

(١) "البيان والتبيين" ١/ ٩٣ .

(٢) "عيار الشعر" ص ٢٢٣ .

(٣) "البيان" ١/ ٩٣ .

وتأمل عبارته «من علم حق المعنى» في أن جعل كل ما من شأنه أن يكسب الكلام صفة البلاغة راجع إلى رعاية حق المعنى، وقوله: «ويكون مع ذلك» يدل على أن ضبط هذا الباب فيه مشقة وعسر؛ لأن النفس قد تنشغل عنه وتعنى بغيره ظنًّا أنه الأولى في الإبانة، فجاءت «مع ذلك» للتنبيه على أن الإحسان في كل ما سبق من مطابقة اللفظ للمعنى، وموافقته للحال وجميع الحقوق لا تغني عن رعايته، وكأنه باب بذاته، وبلاغة خاصة تداخل بلاغة الكلام، لها أصول وضوابط ودرجات ومنازل يتفاوت بها حظ كلام عن كلام.

فتذكر أول الكلام واستحضاره لا لذات التذكر وإنما للبناء عليه وتعليق المعاني التالية به، وهو في صميم قضية النظم، وأصل من أصوله التي فجر عبد القاهر نبعها الأول،وجعلها شريعة واضحة تسقي الدرس البلاغي ففصاحة الكلام «إنما تكون إذا ضم بعضها إلى بعض وكان يكون المراد بضم بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض»[1] .

وأيضًا «ألا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»[2] .

أي أن التشابه والتناسب أصل معتبر في فصاحة الكلام؛ لأن التعليق هو ملاحظة الوشائج والروابط المعنوية التي يحسن بها اقتران الكلمة بالكلمة وضمها إليها وجعل آخرها بسبب من أولها.

والتعليق بين الكلمات وما يتولد عنه من ألفة بين مفردات اللغة يتأدى بها مراد المتكلم مسلك تسهل رعايته في الجملة والجملتين، ولكن الصعوبة في أن يظل المتكلم ممسكًا بأزمة المعاني رغم تنقلاتها وتوزع عناصرها وتفرق شعبها ثم يحكم سيطرته على المقاصد بتعليق جملة الختام برأس الكلام فيحكم بذلك معاقد المعاني، وبمقدار ذلك التعليق يتفاضل كلام على كلام وتعلو مكانته فيصل إلى حد الإعجاز مما ليس في منَّة بشر ولا يحيط به لسان ولا يضبطه تدبير.

---

(١) "دلائل الإعجاز" ص ٤٦٧ .

(٢) السابق ص ٥٥ .

فالإجمال في عبارة الجاحظ وخصوصية التعليق في نظرية النظم عند عبد القاهر كان حائلًا دون تشكيل وبلورة لنمط تعلق الآخر بالأول، لكن الإمام استطاع تفصيل مجملها بقدحها بنظرية النظم، وتجاوز الخصوصية بالعودة إلى جذر النظم وهو التعليق وضم الكلام بعضه إلى بعض دون أن ينظر إليه باعتبار ما يتوخاه المتكلم من قواعد النحو لضم كلمة إلى كلمة أو جملة إلى جملة، وإنما نقلها إلى ما يتوخاه من أحوال ترجع إلى المعاني وما بينها من نسب توجب ردّ بعضها على بعض وعطف آخرها على أولها رغم بعد ما بينها من مسافة وكأن تضاريس الكلام وشعبه المتفرقة لا تحول دون حنين الشبيه إلى شبيهه ولا بين النسيب وما ينتسب إليه، فكشف عن باب من الإعجاز حجبه تناول العلاقة بين الجمل المعدودة في محيط الفصل والوصل أو اعتبار روابط محددة يجري عليها الترتيب ويتشكل وفقها التعليق، فالزمخشري حينما تنبه للضدية في ختام سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] اكتفى بقوله: «جعل فاتحة السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»[1].

فقد استحضر معنى التضاد جملة الافتتاح في الذهن وأحال عليها دون أن يتتبعه في كل سورة وإنما كان لفتة عرضت هداه إليها حسه البياني ودله عليها طول ملازمة لما بين الجمل من وجوه انتساب . ونقلها عنه الرازي دون أن يضيف إليها[2] . ولكنه أحسن حينما مدَّ هذه اللفتة وجعلها من الوجوه التي يعول عليها في حسن البيان.

والدارس لمنهج الرازي في ردّ الخواتيم على الفواتيح يجد فيه عمقًا في إدراك العناصر الغائبة بين الجملتين مع الوضوح في رؤيته حتى كأنه ممسك بجميع مكونات السورة وأغراضها يحركها تجاه غاية واحدة ويستقر بها عند ركيزة تجمع أعناق المعاني، وغالبًا ما يستشف إيمضات من لغة الختام يستضيء بها للكشف عن جوانب قد غشاها الغموض في

(١) "الكشاف" ٣/ ٢٠٧ .

(٢) "التفسير" ٨/ ٣٠٠ .

تنظيم وحدات السورة، فالإيماءات المتولدة من العلاقة بين الخاتمة والفاتحة تبرز إلى النور عمق المعنى وتلتقي عندها المعاني الجزئية فترأب ما تشعث وتعقد ما تفرق مما يكسب المعاني مزيدًا من الثراء والتنظيم؛ لذلك كان تأخيرها ووضعها في نهاية السورة مع جريانها في محيط البدء لا يكون إلا لفائدة لا تحصل إلا بهذا الوضع وهي ما يندس في لغتها من مقاصد الوسط مما يجعلها بمثابة المرقبة التي يشرف منها المفسر على جميع مقاصد السورة، وهذا ما أكده حازم بعده فجعل الخاتمة أجود ما في القصيدة وأدخل في المعنى الذي قصد له الشاعر في نظمها.[1]

ويصدقه أيضًا ما ذكره أحد المبدعين المحدثين في رؤيته لنهاية القصيدة يقول رضا صافي: أنه لم «يكن يرى نهاية القصيدة إلا بعد الفراغ من مطلعها، فإذا تم له المطلع وضع هيكل القصيدة كلها فيشرف على خاتمتها من مكانه ذاك»[2].

وجميع ذلك يؤكد أن جملة الختام هي مخاض سياق الابتداء والوسط وأن فهم المقاصد بمعزل عنها فهم تنقصه الوحدة والتكامل؛ لأن المقصد الكلي يتشكل من خلال النسب المنعقدة بين الخاتمة والفاتحة، مع تنظيمها لعناصر السورة وما اختلف فيها من أغراض، فتأتي الخاتمة لتصهر جميع المقاصد مما يحتاج إلى نظرة شمولية تتسع لتتقصى جميع أجزاء الكلام وتحيط بآفاقه فتصبح على صغر مساحتها متشعبة توزع مساحات السورة في كلماتها المعدودة، لذلك غالبًا ما يعيد الرازي هيكلة السورة ويصف بناءها من خلال الخاتمة.

كما في ختام سورة «البقرة» قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٨٥، ٢٨٦].

---

(١) "منهاج البلغاء" ص ١٧٨.

(٢) "الأسس النفسية للإبداع" مصطفى سويف ص ٢٢٢.

قال فيها: «إنه بدأ في السورة بمدح المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾. وبيَّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾. وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ثم قال ههنا: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ثم قال ههنا: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾. ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها»[1].

فآخر بيان الموصوف بعد أن صدّر الحديث بصفات مبهمة ثم بين أصناف الناس ومواقفهم من هذا الدين وفرع عليه التذكير بالميثاق وحال الأمم مع ما أنزل الله فمنهم من زاده هدى ومنهم من أعرض وكفر، ومنهم من نافق وأبطن، وقرر ذلك بقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣].

وفرع عليه القصص في قصة آدم واستخلافه ثم خروجه من الجنة بعد الزلة وتوثيق العهد بقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة:٣٨]. ثم أتبعها بقصة بني إسرائيل مع ما عهد إليهم ونقضهم لما واثقهم به، ثم بيان خيرية أمة محمد ﷺ التي هي واسطة عقد الأمم وجاء

(١) "التفسير" ٣/١٠٦.

التصريح به في قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣]. بعد أن قال قبلها بآيات: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:١٤١].

وآيات السورة تلح على هذا المعنى وجاءت الخاتمة لتؤكده وتبرزه بعد أن كان مبثوثًا في طيات معاني متنوعة يختفي تارة و يلوح وميضه من بين معانٍ هي منه بسبب، فلما صرح بالموصوف ألقى بينها وصوبها تجاه غاية واحدة ثم إن الأوصاف التي ذكرت ابتداء استرجعتها جملة الختام في صياغة أخرى تحمل عبقًا من معاني الوسط فانتشت عبارتها بمعنى الخيرية التي أقرها عز وجل لهذه الأمة ففضلها بالقرآن سبيل الهداية والمحجة الواضحة النائية عن الريب والشبهات .

وتارة تجده ينظم أغراض السورة بجمع عناصر من الخاتمة وعناصر من الفاتحة يكون التقاؤهما تعزيزًا لمعاني الوسط وتقوية لها . كما في خاتمة سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[النساء:١٧٦]

يقول: «اعلم أنه تعالى لما تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ختم آخرها بذلك؛ ليكون الآخر مشاكلًا للأول ووسط السورة مشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفين للدين، قال أهل العلم: إن الله تعالى أنزل في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي أول هذه السورة، والأخرى في الصيف وهي هذه الآية ... واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة، وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنه قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١]. وهذا دال على سعة القدرة، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم وهو قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾. وهذان الوصفان هما اللذان بهما

تثبت الربوبية والإلهية والجلال والعزة، وبها يجب على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنواهي منقادًا لكل التكاليف»[1].

والرازي حينما قال: «ختم آخرها بذلك ليكون الآخر مشاكلًا للأول» نبه على أن المجانسة بين الجملتين أصل في الإبانة وأن مسار السورة وإن توزعته معانٍ يحور في الخاتمة إلى رأس الكلام مقررًا لمعانيه أو مشاكلًا له، وإن كان هذا الارتداد لا يقطع الوشائج والروابط مع الأغراض داخل السورة وإنما يمتد بطرف إلى معاني الوسط؛ ليدل عليها ويقرر أصولها ويكشف هذا التحليل عن نمط من البيان تتوزعه عناصر تتفرق في جملتي البدء والختام، ويكون في التقائهما تلخيص لما دارت عليه السورة من معانٍ، وتنظيم لما تفرق فيها من أغراض، فالسورة تسودها الدلالة على أحكام الأموال والوسط تعرض للرد على شبهات الطاعنين ومناظرة الفرق المخالفة للدين، فجاءت الخاتمة والفاتحة بوصفين نظما ما تفرق فيها من أغراض، وذلك بإثبات القدرة ابتداء في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. ثم إثبات كمال علمه جل سلطانه بقوله ختامًا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذان الوصفان دعامتان ارتكزت عليهما مقاصد السورة وألفا بين مختلف المعاني ووحدا أجواء السورة فبهما تدفع شبهات الطاعنين والمخالفين بتقرير ربوبيته وألوهيته، وبهما أيضًا ينقاد المكلف لما جاء فيها من أحكام وتكاليف فالوصفان يغذيان جميع معاني السورة ويصبان في أغراضها.

وهذه الطريقة من التفسير تبرز للناظر السورة جملة واحدة وتريه الأغراض المختلفة والأفانين المتنوعة على تباعد أمكنتها قد التقت حلقاتها وجمعت له أطرافها حتى يراها في مكان واحد وصل فيه آخرها بأولها.

ونقل عنه البقاعي ما انتظم بين الوصفين من معانٍ وزاد عليه رعاية موقع الآية وتأخيرها عن نظائرها في السورة ووضعها ختامًا للسورة؛ ليناسب أولها في شأن الفرائض؛ لأن «تفريق القول فيما تأباه النفوس وإلقاءه شيئًا فشيئًا باللطف والتدريج أدعى لقبوله، وللإشارة إلى شدة الاهتمام بأمر الفرائض بجعل الكلام فيها في جميع السورة، أولها أو أثنائها

(١) "التفسير" ٤/ ٢٧٥.

وآخرها، والتخويف من أن يكون حالهم كحال المنافقين .... ومن هنا ظهرت مناسبة آخر هذه السورة لأولها ؛ لأن أولها مشير إلى أن الناس كلهم كشيء واحد، ... وآخرها مشير إلى ذلك بالتسوية بين النساء والرجال في مطلق التوريث بقرب الأرحام وإن اختلفت الأنصباء»[1] .

واستصحاب الخاتمة لمعاني الافتتاح قد يكون جليًّا وذلك بتكرار عناصر جرت ابتداء فتحيل إلى مظانها وتعيد سياقها إلى الذهن، وكثيرًا ما تكون تلك العناصر المسترجعة هي صفوة معانيها وقطب مدارها، وفائدة ذلك أن تراكم السياقات عند معنى محدد ينمي دلالته ويضيف إليه . كما جاء في ختام سورة «الزخرف» في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[الزخرف:٨٧] استصحبته من جملة الافتتاح حيث ذكره ابتداء بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الزخرف:٩].

قال فيها: «اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وآخرها والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع بل هي جمادات محضة»[2] .

والأولى جاءت في سياق مشركي قريش والأخيرة في سياق الردّ على النصارى ولو انفرد واحد منهم بالتعبير لكان مؤديًا للغرض، ولكن اجتماعهما أضاف إلى الأول التعجيب من حالهم، وأيضًا التقاء حلقتي الكلام مع اختلاف سياقهما دل على أن منهج الضلالة وإن تنوع في طرائقه إلا أنه يتخذ مسارًا واحدًا هو الإسراف والصدّ عن الدلائل رغم استنارتها في عقولهم وقرارها في أعماق فطرتهم فالنصارى مقرون بكمال قدرته وعلمه «ومن كان كاملًا في الذات والعلم والقدرة ... امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى»[3].

فلما ردّ آخر الكلام على أوله أفاد تسلية قلب النبي ﷺ وأن هذا سنن من كان قبلهم .

---

(١) " نظم الدرر " ٢/ ٣٨٢ .

(٢) " التفسير " ٩/ ٦٤٩ .

(٣) " التفسير " ٩/ ٦٤٩ .

وكذلك ختام سورة «القلم» استرجع المعنى لزيادة بيان ما ذكره ابتداء فـ «قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم:٥١] وهو على ما افتتح به السورة ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه تذكير لهم، وبيان لهم وأدلة لهم، وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد، وفيه من الآداب والحكم وسائر العلوم ما لا حد له ولا حصر، فكيف يدعي من يتلوه مجنونًا ونظيره مما يذكرون، مع أنه من أدل الأمور على كمال الفضل والعقل»[1].

بينما عدها البقاعي استحضارًا لمعاني الافتتاح في إزالة ما وصف به ﷺ من أن ما يقوله من تخاليط من يصرع بالجن، وتأكيد ما جرى في أولها من القسم على كونه على خلق وذكر عظيم بقصر القلب ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وهذا النوع تدلك فيه المعاني على نفسها ولا تحتاج إلى طول تأمل وإنعام فكرة بينما نجد نوعًا آخر نبه فيه الرازي على أن المكونات أو العناصر الدلالية لا ترد بصيغتها الأولى التي كانت عليها في الافتتاح وإنما يداخلها تغيرات تعتري الدلالة من بعد جريانها وامتدادها في السياق، فحينما تستقر في الخاتمة تتغير صورتها نسبيًّا وتتخذ ملامح وشيات سياقها الذي احتواها ونمى أصلها وفطرتها الأولى وذلك في تحليله لختام سورة «الواقعة» ما طرأ على الصفات التي جاءت ابتداء من تغيرات حينما جيء بها ختامًا فـ «ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة وأعادهم بعبارة أخرى فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة:٨]. ثم قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٢٧]. وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة:٩]. ثم قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة:٤١]. وأعادهم ههنا، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد وبلفظين مرتين، أحدهما غير الآخر، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين، وفي آخر السورة بلفظ «المقربين»، وذكر أصحاب النار في الأول بلفظ «أصحاب المشأمة» ثم بلفظ «أصحاب الشمال» ثم بلفظ «المكذبين» فما الحكمة فيه ؟ نقول: أما السابق فله

(١) "التفسير" ١٠/ ٦١٩، وينظر أيضًا: ١٠/ ١٩٧.

(٢) "نظم الدرر" ٨/ ١١٨.

حالتان: إحداهما في الأولى، والأخرى في الآخرة فذكره في المرة الأولى بما له في الحالة الأولى، وفي الثانية بما له في الحالة الآخرة، وليس له حال هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب، بل هو ينقل من الدنيا إلى أعلى عليين ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظين متقاربين؛ لأن حالهم قريبة من حال السابقين، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم، بأنهم أصحاب موضع شؤم، فوصفوهم بموضع الشؤم، فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع، ثم قال: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ فإنهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم، ويقفون في موضع هو شمال، لأجل كونهم من أهل النار، ثم إنه تعالى لما ذكر حالهم في أول الحشر بكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم ثم لم يقتصر عليه، ثم ذكر السبب فيه، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٤٥، ٤٦]. فذكر سبب العقاب لما بينا مرارًا أن العادل يذكر للعقاب سببًا، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سببًا، فذكرهم في الآخرة ما عملوه في الدنيا، فقال ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الواقعة: ٩٢]ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل وغير ذلك ظاهر»[1].

فاستدل على أطوار حال الأصناف الثلاثة بتنقلات الصيغة فذكر الكفار تنقل في ثلاث صيغ فنبه ذلك على درجاتهم وأحوالهم في الدنيا ثم أول الحشر ثم منزلتهم في الدار الآخرة ولما التزم في صفة السابقين وأصحاب اليمين بحالتين دل على ما ينالونه من كرامة وقرب منزلة فينقلون من الدنيا إلى أعلى عليين فليس لهم حال واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب.

ونوع آخر لا تستصحب فيه عناصر لغوية لربط آخر الكلام بأوله وإنما بالبناء والترتيب عليه فيستثير خباياها ويبرز مكوناتها؛ لأن الجملة «يصير معناها بالبناء عليها شيئًا غير الذي كان، وأنه يتغير في ذاته».

فبناء الخاتمة على جملة الافتتاح لا تقتصر وظيفتها على ترجيع المعاني وإنما يحدث تغيرات وتحويرات في الفاتحة توجه معانيها وتنبه على أسرار ومزايا زائدة على الأصول المتفرعة عنها،

(١) "التفسير" ١٠/ ٤٣٩.

فثمة تفاعل بين عناصر السورة ووحداتها المختلفة مناطه إحكام النسب فيما بين المعاني؛ لأن العلاقة إذا كانت صحيحة وقوية تيسر معه استعادة الذهن للنظائر والمماثلات داخل السورة وتمييز وجه انتساب بعضها إلى بعض.

وهذا النوع تدق فيه العلاقة وتلطف ويلزمك معرفتها ألا تقصر النظر على ما ظهر من المعاني ودعا إلى نفسه دون ما كمن وأن ترود بوارق شامت خلف لغتها فتتبع ما شابه من معانيها وتناسج في خاتمتها من فاتحتها وحتى تتأمل أطراف هذه الآيات فتعرف انتساب بعضها إلى بعض، واتصال آخرها بأولها مع افتنان مذهبها وتباعد موقعها.

والعلاقات بين معاني الجمل مما لا يمكن حصره ولكن نعتمد في تصنيفها على ما ذكره الرازي من توجيهات للنسب بين المعاني وطرائق رده آخرها على أولها . وتتلخص في الأوجه التالية:

أولًا: ما كانت فيه الخاتمة مقابلة لمعاني الافتتاح وجاء ذلك في سورة الفاتحة فقد كان «أول السورة مشتمل على الحمد والثناء عليه والمدح له، وآخرها مشتمل على الذم للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته»[1] .

فدلالة أن مطلع الخيرات هو الإقبال على الله تعالى كانت غائبة في صدر «الفاتحة» لم يجليها إلا رد ما آل إليه أهل الضلالة من مصير نتيجة الإعراض عن الله تعالى ومجانبة الطاعة على الابتداء الذي تعلوه الطمأنينة والرضى التام المتولد من الحمد لله ثم ترتيب الإقرار بربوبيته وألوهيته على صفات الله في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقد هيأت جميع هذه الخصوصيات لإجراء المقابلة بين عجز الكلام وصدره، وكانت بمثابة قرينة محققة للتناسب بين الجملتين.

---

(١) "التفسير" ١/ ٢٣ .

ويلاحظ في تحليل الإمام تصوره الكلي لمعاني السورة، فلم يفسر الخاتمة باعتبارها قفلًا للمعاني، وإنما جعلها جزءًا من بناء معاني الافتتاح، وكأن معنى الضدية معنى معتبر في دلالة الصدر لا يكتمل بيانه إلا بتعليقه به ورده إليه.

ثانيًا: التأكيد: وهو أن تكون معاني الخاتمة مطابقة في مغزاها لمعاني الفاتحة فتواطئ الدلالة الدالة فتقويها وعليه أكثر سور القرآن، ومن ذلك ما ذكره في تفسيره لخاتمة سورة «الدخان»: «اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة ذكر الوعد في هذه الآيات فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾... ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان:٥٧]. ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[الدخان:٥٨]. والمعنى أنه تعالى وصف القرآن في أول السورة بكونه كتابًا مبينًا أي كثير البيان والفائدة وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال: إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك أي إنما أنزلناه عربيًا بلغتك لعلهم يتذكرون»(١).

وفي سورة «القيامة» تسترجع الخاتمة مقاصد البدء وتؤكدها بالبناء عليها وتقويتها بالاستدلال يقول في قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[القيامة:٣٦]: «واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة قوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾[القيامة:٣]أعاد في آخر السورة ذلك، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين . الأول: قوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾... الدليل الثاني: الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، وهو المراد من قوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾[القيامة:٣٧]»(٢).

وأحيانًا نجده ينص على أن جملة الخاتمة لا تكفي وحدها في التعليق بالافتتاح وإنما إحكام المناسبة بينهما تكون بملاحظة بعض عناصر الأغراض السابقة لها فيتولد من بينها وشائج تحقق النسبة وتؤكدها كما في ختام سورة «الحجرات» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الحجرات:١٨].

(١) "التفسير" ٩/ ٦٦٥-٦٦٧.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٧٣٧.

ففيه«إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم وأعمال قلوبكم الخفية، وقال: ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة، وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[الحجرات:١]فإنه لا يخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه في السر، ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية»[1].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحجرات:١٦]. وانتظامها مع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ غذيا جملة المطلع وأكد الأمر بالتقوى والتخويف من إضمار النفاق؛ لأنه بصير بما تعملون.

ثالثًا: التفصيل: وهذا النوع تكون فيه الفاتحة مكتنزة لمعانٍ مجملة فتأتي الخاتمة لتستل منها ودائع فتبينها وتستقصيها كما في سورة الكهف في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١٠٩،١١٠].

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمدًا ﷺبأن يسلك طريقة التواضع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إليّ أنه لا إله إلا الله الواحد الصمد»[2].

فالخاتمة حركت المعاني المجملة في الافتتاح ووجهتها نحو التفصيل فنبهت على كمال حال القرآن وعلو مكانته، وحققت معنى العبودية الذي كان هامسًا في قوله: «﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[الكهف:١] فمطلت دلالته وبينت أنه يجب عليه أن يسلك طريق التواضع؛ لأن اختصاصه من بين الناس بالنبوة واصطفاءه بتلقي كلام الله لا بموجب امتيازه في شيء من الصفات البشرية.

---

(١) "التفسير" ١٠/ ١١٨.

(٢) "التفسير" ٧/ ٥٠٣.

وكذلك سورة «الإسراء» ختمت ببيان الكيفية في التكليف المجمل في بدء السورة في قوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾[الإسراء:١] . ثم جاءت الخاتمة لتفصيله «فقال: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[الإسراء:١١١]. فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع من الصفات: النوع الأول: من الصفات أنه لم يتخذ ولدًا ... والنوع الثاني: من الصفات السلبية قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾. والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقًا للحمد والشكر، والنوع الثالث: قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام،أو منعه منه، أما إذا كان منزهًا عن الولد وعن الشريك، وكان منزهًا عن أن يكون له ولي يلي أمره كان مستوجبًا لأعظم أنواع الحمد ومستحقًا لأجل أقسام الشكر»[1] .

وفي سورة «ق» ينبه على أن آخرها تفصيل وبيان للغرض الرئيسي الذي عليه مدارها وهو الحشر في قوله: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[ق:٣]. فكان قوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ ﴾[ق:٤٤]. بيانًا لإمكان وقوعه ويسر ذلك لكمال قدرته ونفوذ مشيئته وألمح إلى هذا بقوله: «ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال في آخرها ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[2] .

وأيضًا هناك خصوصيات بيانية أحكمت الربط ويسرت إحالة الذهن إلى المطلع فمخالفة التعبير ونقض تساؤلهم المستنكر لإمكان الرجعة بعد الموت وتحلل الجسد وتفرقه أجزاء بالتقرير الهادئ دون عناصر مؤكدة نبه على ضلالتهم وعمايتهم عن حقيقة أطبق الكون على التصديق بها؛ لظهور دلائلها، ثم دفع قولهم: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[ق:٣] بأسلوب مقابل في ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[ق:٤٤]. فهم استبعدوا الرجعة والإعادة فأثبت عز ووجل ما هو أبعد من ذلك وهو الحشر؛ لأنه يشمل الرجعة وغيرها من مواقف العرض .

---

(١) "التفسير" ٧/ ٤١٩، ٤٢٠ .

(٢) "السابق" ١٠/ ١١٩ .

وهناك تفصيل باعتبار السببية كما في سورة «يوسف» عليه السلام في قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف:١١١].

يقول: «إنه ذكر في أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[يوسف:٣]. ثم ذكر في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[يوسف:١١١] تنبيهًا على أن حُسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة»[1].

رابعًا: تكميل المعاني: وفي هذا النوع نجد الخاتمة تربو بمعاني المطلع وتنميها، فيتدرج المعنى بسيطًا ويترقى إلى أعلى مدارجه كما في سورة «المائدة» في قوله: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة:١٢٠].

فـ «مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[المائدة:١]. وكمال حال المؤمن في أن يشرع في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلية فالأول هو الشريعة وهو البداية والآخر هو الحقيقة وهو النهاية، فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح وهذا المختتم»[2].

فالخاتمة تصوير لقصة ذلك العهد المنعقد بين الإنسان وربه وتصور مجاهدته وصراعه من أجل البقاء على ما عاهد الله عليه ثم ترقيه في منازل التكليف ومراتبه إلى أن يصل إلى ذروة سنامه وهو اليقين والحقيقة.

فيبدأ أمره بالانقياد والوفاء بحق العبودية وينتهي إلى المعرفة بالله الواجد في قوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[المائدة ١]وشيجه ناظمة لطرفي الكلام فالخاتمة تقرير لها؛ لأن الوقوف عندما أحل الله وحرمه يئول إلى أن كل ما في السماوات والأرض لله تعالى في قبضته ومسير بأمره واقتداره.

---

(١) "التفسير" ٦/ ٥٢٢.

(٢) "التفسير" ٤/ ٤٦٩.

وأحيانًا لا يصرح بالمناسبة بين الخاتمة والفاتحة وإنما يتبين ذلك من تشابه العرض واستحضار السياق ذاته في تدوير معاني الخاتمة وأغراضها، ففاتحة «الأعراف» يجعل مدارها على تقرير أمر الرسالة وذلك «يتم بالمرسِل وهو الله ﷻ، والمرسَل وهو الرسول، والمرسَل إليه وهو الأمة، فلما أمر في الآية الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي وعزم صحيح أمر المرسل إليه وهم الأمة بمتابعة الرسول فقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:٣]»[1].

فجاءت الخاتمة لتقرير ذلك وتفصيله فقال: ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦] فـ «بين بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله ؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين والدنيا، أما تحصيل منافع الدين فبسبب إنزال الكتاب، وتحصيل منافع الدنيا فهو المراد بقوله ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾»[2]. وهذا في المرسِل .

وقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الاعراف:١٩٩، ٢٠٠]. بيان للمنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس[3] . وهذا في أمر المرسَل وهو الرسول -عليه الصلاة والسلام- . ثم جاء قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الأعراف:٢٠١-٢٠٤]

في أمر المرسل إليهم يقول فيها: «لما بين في الآية الأولى أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال بين في هذه الآية نوعًا من أنواع الإغواء وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت»[4] .

---

(١) " التفسير " ٥/ ١٩٦ .

(٢) " التفسير " ٥/ ٤٣٣ .

(٣) " التفسير " ٥/ ٤٣٤ .

(٤) " التفسير " ٥/ ٤٣٨ .

ثم عاد الخطاب للرسول بالمبالغة في إلزامه بأمر الدعوة فجاء قوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾[الأعراف:٢٠٥، ٢٠٦]

«فكانت هذه الآية جارية مجرى أمر الله محمدًا بأن يقرأ القرآن على القوم بصوت عالٍ رفيع، وإنما أمره بذلك؛ ليحصل المقصود من تبليغ الوحي والرسالة، ثم ... ذكر عقيبه ما يقوي دواعيه في ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾»[1].

ويحكم البقاعي رد آخر السورة على أولها بتتبع عناصر الخاتمة وجزئياتها في جملة المطلع وذلك برجوع الآخر ومعاضدته للأول في الأمر باتباع القرآن ومقابلة وصف المقربين بالخضوع وعدم الاستكبار لما جاء في بدئها من عصيان إبليس ونفوره عن السجود.[2]

❊❊❊❊

(١)" التفسير " ٥/ ٤٣٨ .

(٢)" نظم الدرر " ٣/ ١٨٠ .